حتى تتشابك القلوب

اسم الكتاب: حتى تتشابك القلوب
اسم الكاتب: د. هبة الله عاصم
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف:
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حتـــى
تتشابك القلوب

رواية

د. هبة اللّه عاصم

العقل قوة،

والقلب رقة،

وقوة بلا رقة نار

ورقة بلا قوة انهيار

ولا يمكن لأي منهما العزف منفردًا

منذ بدء الخليقة وآفة النفس عدم الرضا.

لم يرض أبونا آدم بما في يديه من نعم وهفت نفسه لما منعه الله منه، فأكل من الشجرة فهوى.

لم يرض قابيل بما قسمه الله له، فقتل أخيه فندم.

ويمر الدهر وتمضي السنون ويبقى الإنسان غير راض بحاله، وكأنما كتب على ابن آدم نصيبه من الألم،

يُعطَى ولا يرضى، يأخذ ولا يقنع، فيهوى فيشقى فيندم، وليته يتعلم!

هنا في نفس المكان الذي رأيت فيه لمعة عينيكِ للمرة الأولى أجدني واقفًا أسأل نفسي: "أكان الأمر يستحق حقًا؟"

لست أدري أكان ذلك طمعًا أم نزوة أم عدم نضج. كل ما أعلمه الآن أنني بفقدك فقدت الهواء الذي أتنفسه والقلب الذي أحيا به.

"خُطِبَت فاطمة".

كلمتان اخترقتا روحي وقلبي قبل أذناي فمزقتهما أشلاءً تناثرت حولي. لم أشعر بنفسي إلا وأنا هنا في نفس المكان أتجرع ذكريات لم يبق لي سواها، بعد أن خُطِبت فاطمة... زوجتي!!

وبين براثن الألم جلست أبكي على الأطلال؛ أطلال قلب لم يرض بما ناله، فعوقب بحرمانه، وليته يرضى!

(من أول نظرة)

أمي ... أمي، أين أنت؟

ها أنا ذا يا علي، حمدًا لله على سلامتك يا بني.

لدي مفاجأة لكِ، وجدتها وجدتها.

نظرت لي أمي كأنني قد فقدت عقلي وسألتني: "من هي؟"

اسمها فاطمة. طالبة جديدة في الكلية. تسكن في مدينة السادس من أكتوبر، ولا أعلم أي شيء آخر عنها حتى الآن.

اهدأ بني وقص علي الأمر من بدايته.

لا شيء يا أمي. فقط رأيتها اليوم في حفل استقبال الطلاب الجدد، وسمعت صديقتها تناديها "فاطمة"، ثم تابعتها بعد انتهاء الحفل وانطلقت ورائها حتى علمت مكان سكنها. سألت بواب العمارة عن هاتف والدها فأعطاني إياه.

نظرت لي أمي وكأنها تريد أن تصرخ في وجهي بأنني مجنون، ثم تمالكت نفسها وقالت "هل جننت يا علي؟ هل تعي ما تقول؟"

ما المشكلة يا أمي؟

مشكلة واحدة؟ بل قل المشاكل. الزواج لا يكون هكذا أبدا. ثم إنك تقول إنها طالبة جديدة؛ أي أن أمامها سنوات خمس لتتزوج، فهل تعتقد أن أباها قد يوافق على فترة خطوبة تصل لخمس سنوات؟

مقاطعًا قلت: "إن شاء الله سأتزوجها في إجازة نصف العام".

ماذا تقول؟!

سوف أتحدث مع أبي بعد عودته. دخلت غرفتي تاركًا أمي وهي على وشك الانفجار. دخلت لأفكر في فاطمة؛ حبيبتي.

تذكرت حينما وقع بصري عليها وهي واقفة مع صديقتها. فجأة شعرت بقلبي ينتفض بين ضلوعي ويتركني ويذهب إليها. هل يمكن ذلك حقا؟ أم تراني مجنونًا كما قالت أمي؟

كنت أقف مع بعض الطلبة ننظم حفل استقبال الطلاب الجدد عندما سمعت إحداهن تنادي "فاطمة فاطمة..."

التفت فوقع بصري عليها فانتفض قلبي صارخًا "إنها هي".

لم أستطع أن أصرف نظري عنها حتى انتهاء الحفل. ظللت أتابعها حتى لا أفقدها بعدما وجدتها. رقيقة الملامح هي، قمحية اللون، متوسطة الطول، لم أستطع أن أتبين قوامها لأنها ملتزمة بزي فضفاض لم يحدد جسدها، ولكن من وجهها أعتقد أنها ليست سمينة ولا رفيعة.

كدت أن أنطلق إليها وأطلب منها الزواج، لكن خشيت أن تظنني مختلًا، ففكرت في طريق آخر. هل أنتظر بدء الدراسة لأتعرف عليها أكثر؟

لا لن يمكنني الانتظار. انطلقت خلفها وصديقتها أثناء مغادرتهما الكلية. تولت فاطمة قيادة السيارة فحمدت الله أن سيارتي كانت قريبة من سيارتها. أوصلت صديقتها أولًا ثم وصلت بيتها. صعدت فذهبت للبواب وسألته عن اسم ورقم هاتف والد الآنسة فاطمة، فابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور وأعطاني إياه قائلًا: "أحسنت الاختيار"، وهو ما أسعدني أكثر وأكثر. تبادلت معه أطراف الحديث فعلمت أن والدها المهندس محمد

يمتلك شركة مقاولات كبرى وأعطاني عنوان الشركة، ووالدتها طبيبة، ولها أخ يكبرها بعامين في كلية الهندسة وآخر يصغرها بعامين. وأن أسرتها أسرة طيبة.

غفوت قليلًا وأنا أفكر في زوجتي المستقبلية لتوقظني أمي بعدما حضر أبي وأخواي لنتناول الغداء.

وبالطبع لم تنتظر أمي انتهاءنا من تناول الطعام فألقت بالمفاجأة في وجه الجميع قائلة: "أبشركم أن أخيكم قد فقد عقله".

نظرت لها بغيظ، وانفجر أخواي ضاحكين بينما نظر لها أبي متسائلًا فقالت له "رأى طالبة مستجدة في الكلية اليوم فهام بها حبًا وسار ورائها حتى بيتها وحصل على هاتف والدها ليتزوجها".

ازدادت ضحكات أخواي وظلا يسخران مني بينما انتظرت حتى توقف الهرج وقلت لأبي: "هلا اتصلت بوالدها اليوم يا أبي لنذهب لهما؟"

كان أبي يعلم أنه لا جدوى من محاولة إقناعي بغير رأيي، فقال لي: "هلا أعطيتني المعلومات التي عرفتها عنها لأسأل عنهم أولًا قبل أن نأخذ تلك الخطوة؟"

أفحمني أبي برده، فلم أتمكن من مجادلته. أخبرته بالمعلومات التي عرفتها من البواب، فأخبرني أنه سيسأل عنهم جيدًا ثم يخبرني بما وصل إليه. قبلت رأسه وطلبت منه أن يكون ذلك خلال يومين على الأكثر، فوعدني أنه سيحاول.

وبعد أسبوع بعد أن كدت أفقد عقلي من التفكير، بشرني أبي أن كل من سأله يشيد بالأسرة وبالفتاة، وأنه قد ذهب إلى والدها في شركته وطلب منه تحديد موعد لزيارتهم، فطلب منه والدها يومين يسأل عنا خلالهما، ثم يرد عليه. سجدت لله شكرًا، فنظر لي أبي ساخرًا وقال: "هلا انتظرت لترى إذا كانت ستوافق أم لا"

وهنا اندفعت أمي قائلة: "وكيف وافق والدها على زواج ابنته التي ما زالت في الثامنة عشر على أقصى تقدير؟؟"

قال أبي ضاحكًا: "الطيور على أشكالها تقع. يفكر الرجل مثل ابنك تمامًا، فيرى أن الزواج المبكر أفضل للفتى والفتاة، بل إنه أخبرني أنه يحاول إقناع ابنه الأكبر بالزواج منذ أن دخل الجامعة ولكنه يرفض ذلك".

شعرت بسعادة كبيرة وأنا أسمع ذلك، ها قد اقتربت منك أكثر يا حبيبتي.

"بالمناسبة يا دكتور، فتاتك طالبة في كلية الهندسة وليست في طب أسنان كما تعتقد".

قالها أبي فأكدت له أنني رأيتها في الكلية. فقال لي: "لا أعرف ولكن والدها أخبرني بذلك. بالطبع لم أخبره أنك رأيتها في الكلية مرة وفتنت بها، لكني أخبرته أننا قد سمعنا عن حسن سيرتهم".

*****

وفي بيت فاطمة كان هناك حوار من نوع آخر.

أرجوك يا أبي لا أريد أن أتزوج هكذا.

حبيبتي لن أرغمك على شيء، فقط اجلسي معه فإن قبلته فنعما هي، وإلا فلن أجبرك على شيء.

يا أبي أنا لم أبدأ دراستي الجامعية بعد، فكيف سيمكنني التوفيق بين الزواج والدراسة؟؟

دعي الأمور تمشي بمقاديرها يا فاطمة. دعينا نبدأ خطوة خطوة.

دخلت فاطمة غرفتها باكية، حدثت نفسها: "لا أريد أن أتزوج الآن. أريد أن استمتع بحريتي قبلًا. الجامعة غير المدرسة. في الجامعة هناك مساحة من الحرية، ولن أسيء استخدامها، فلماذا يصر أبي على تقييد حريتي."

اتصلت بصديقتها أسماء وحكت لها وهي تغالب دموعها.

"كم أنت غريبة يا فاطمة" قالتها أسماء وأردفت: "طالما أن أبيك لن يجبرك على الزواج، فيمكنك بسهولة أن تخبريه بعد المقابلة أنك لم تشعري بالقبول".

*****

"ألم تستعدي بعد يا فاطمة؟ اتركي تلك الرواية واستعدي فالعريس ووالدته وأخته على وشك الوصول".

قالت فاطمة متكاسلة: "حاضر يا أمي، سأفعل".

كانت فاطمة قد اتخذت قرارها قبل دخولها، لذا فلم تكلف نفسها عناء النظر لعلي من الأساس. سلمت على والدته وأخته وجلست بجانبهما وأمها التي انسجمت مع والدته في الحديث. ظلت صامتة قليلًا ثم سرعان ما انسجمت مع أخته في الحديث أيضا. كانت سلمى أخت علي خفيفة الظل ولبقة في الحديث، تكبر فاطمة بعشر سنوات، متزوجة ولديها طفلين، ولكن حديثها يشعرك بأنها طفلة. ومع انسجامهما في الحديث نسيت فاطمة تمامًا أمر علي. وبعد حوالي ساعتين استأذنت والدته للانصراف، وانصرفوا.

ظنت فاطمة أن الأمر قد انتهى، ولن يكتمل الأمر فلم يوجه لها علي أي كلمة مما جعلها تظن أنه لن يتصل مرة أخرى.

ولكنها ما لبثت أن سمعت رنين الهاتف بعد حوالي ساعة من مغادرتهم وسمعت أباها وهو يقول: "سأرى رأي فاطمة وأبلغكم بإذن الله".

"فاطمة، دكتور علي يطلب أن نحدد موعدًا للخطبة"

ماذا؟!

تعجبت فاطمة كثيرًا؛ لم ينظر إليها ليراها، وحتى إن فعل، فلم يتحدث إليها بكلمة واحدة فكيف يريد أن يخطبها. تمالكت نفسها وقالت: "ولكنني لم أشعر تجاهه بالقبول يا أبي".

نظرت لها أمها بغيظ، بينما نظر لها أبوها بهدوء وكأنه يسبر أغوارها قائلًا: "استخيري ثم نتحدث".

ولكنك أخبرتني يا أبي أنك لن تجبرني على الزواج.

ومن قال إنني سأجبرك؟ فقط أقول استخيري.

دخلت إلى غرفتها مغتاظة من هذا ال "علي".

فكرت أنه بالتأكيد بلا شخصية، فقد تأثر برأي والدته وأخته أما هو فلا رأي له. شخص سمع عن فتاة طيبة وأعجبت أخته ووالدته فأراد أن يتزوجها، وكأن العالم ينقصه أشباه الرجال.

قررت ألا تستخير وأن تخبر والدها برفضها.

تحدثت مع أسماء ووافقتها على ما قالت، فشعرت بالرضا والهدوء وخلدت إلى النوم.

وفي الصباح، سألها أبوها عن رأيها مرة أخرى، فأصرت عليه.

شعرت أمها بالحنق، ولكن أبيها قال لها بهدوء: "هي حياتها ورأيها، فقط واجبنا أن نوجهها".

*****

أخبرني أبي أنه اتصل بوالد فاطمة يطلب منه تحديد موعدًا للخطبة كما طلبت منه، فلقد أشادت أمي وأختي بفاطمة وأسرتها كثيرًا بعد عودتنا، مما شجع أبي على ذلك.

سألتني أختي: "لماذا لم تتحدث معها يا علي حتى تعلم كيف تفكر وتعرف بعضًا من طباعها، أو على الأقل تسمع صوتها".

"لست في حاجة لذلك يا سلمى، فلن يفرق ذلك معي كثيرًا. أنا أحبها كيفما كانت. وأما عن طباعها فلقد رأيتها في عينيها، وأما عن صوتها، فلقد استمعت لكل كلمة دارت بينكما".

انفجرت سلمى ضاحكة وقالت لأبي: "يبدو أن ابنك قد فقد عقله يا أبي". ثم أردفت: "ولكنها أيضًا لم تنظر إليك يا علي ولم تتحدث معك فهل تراها أحبتك كذلك من أول نظرة؟"

نظرت إليها واجمًا؛ هذا ما يقلقني حقًا يا سلمى، ولكن لا بأس فلننتظر الرد. ثم وجهت كلامي لأبي قائلًا: "متى ستتصل بوالدها؟"

أجابني أنه سوف يمهله يومين أو ثلاثة ثم يتصل.

ولكن هيهات، لم أستطع الانتظار، واتصلت بوالد فاطمة في اليوم التالي ليخبرني بما توقعته. رفضتني فاطمة.

نعم توقعت ذلك؛ فهي لم تنظر لي بالأساس لتقبلني. هل هناك شخص آخر في حياتها؟؟ ربما، وربما لا.

سأفترض صحة الاحتمال الثاني، لذا استجمعت شجاعتي ورددت على والدها قائلًا: "هل لي في سؤال يا عمي؟"

"بالطبع يا بني تفضل"

"هل هناك أي اعتراض على زواجي من فاطمة من حضرتك أو والدتها، أم أن الاعتراض من فاطمة وحدها؟؟"

وعلى الرغم من أنني قد شعرت بدهشته إلا أنه قال: "لا يوجد لدينا أي مانع، ولكن المهم هو رأي فاطمة."

تنفست الصعداء وحمدت الله في داخلي وقلت: "فهل تسمح لي أن ألتقي بها مرة أخرى على أن تكون تلك المرة خارج المنزل في وجود والدتي ووالدتها؟"

صمت قليلًا ثم سألني عن السبب.

وددت أن أخبره أنني أحببت ابنته من أول نظرة، ولكنني خشيت أن يراني مختلًا هو الآخر، فقلت: "ربما لم تتمكن الآنسة فاطمة من رؤيتي أو الحديث معي في المرة السابقة، فاسمح لي بأن أجلس معها مرة أخرى".

بدا على صوته بعض التردد ثم قال: "وهو كذلك".

لم أعطه الفرصة ليفكر مرة أخرى فقلت له: "إذن أمر عليكم ووالدتي غدًا إن شاء الله بعد صلاة العشاء، ثم..."

قاطعني قائلًا: "بل حدد مكان المقابلة وستأتي فاطمة ووالدتها إليكما، فلا أفضل أن تركب ابنتي وزوجتي مع شخص غريب".

شعرت ببعض الضيق من وصفه إياي بالغريب، كيف يقول إنني غريب وأنا سأصبح زوجًا لابنته.

كتمت ضيقي وأخبرته بالمكان واتفقنا على الموعد.

*****

كنت أعلم أن كلية الهندسة تقيم اليوم حفلًا لاستقبال الطلبة الجدد، حيث أن صديقي حازم يعمل معيدًا فيها. قررت الذهاب إلى هناك على أمل أن تأتي فاطمة وأراها. كنت أريد أن أتأكد من شيء ما. فاتفقت مع حازم على الذهاب معه وهناك وقفت وانتظرتها.

لم تخيب ظني وأتت. وشعرت بقلبي يحلق في السماء عندما رأيتها. رأيت معها صديقتها التي رأيتها معها المرة السابقة. أخذت بعض الأوراق الخاصة بالفعالية وتقدمت منهما، شرحت لهما بعض الأمور التي تخص الكلية كما أخبرني بها حازم. وعلمت وقتها أن ظني كان في محله. شكرتني فاطمة على ذلك ظنًا منها أنني أحد المعيدين في الكلية، واعتذرت صديقتها أسماء عن أخذ هذه الأوراق وأخبرتني أنها ليست طالبة في الكلية، ولكنها طالبة في طب الأسنان.

قلت في نفسي: "هكذا الأمر إذن، الآن فهمت"

لم تتعرف علي فاطمة، ولا حتى عندما أخبرتها باسمي. إذًا فقد كان ظني في محله؛ فاطمة رفضتني دون أن تراني أو حتى تسمع مني.

ابتسمت بيني وبين نفسي وقلت: "أعدك أنك ستكونين لي".

*****

وبعد عودة فاطمة من الجامعة أخبرتها أمها أن عليًا اتصل بأبيها وطلب أن يلتقيهما اليوم مساءً خارج المنزل مع والدته.

سألت أمها بضيق: "أولم يخبره أبي برفضي؟"

"بلى فعل، ولكنه طلب لقائك مرة أخرى. استعدي للذهاب فسنقابلهما بعد صلاة العشاء إن شاء الله".

وبعد صلاة المغرب، طلبت منها أمها الاستعداد لأن اللقاء سيكون في أحد الأماكن في شارع النيل، فقالت: "ماذا؟ شارع النيل؟ في الجيزة؟؟ هل سأقود السيارة كل هذه المسافة ووسط ذاك الزحام؟ وأين يمكنني أن أجد مكانًا لركن السيارة؟ بالتأكيد اختار مكانا قريبا من بيته."

نظرت لي أمها متعجبة وقالت: "الدكتور علي يسكن بالقرب منا يا فاطمة. أخبرك والدك بذلك قبل حضورهم المرة السابقة، هل نسيتِ؟ ثم لماذا تتحدثين عنه بتلك الحدة وهذا التحفز؟"

فلماذا اختار هذا المكان إذن؟

لا أدري، يمكنك أن تسأليه، على الأقل تجدين شيئا تتحدثين فيه معه بدلا من أن تظلي صامتة.

*****

وفي المدخل سألها موظف الاستقبال: "الآنسة فاطمة محمد؟"

نظرت له متعجبة، وقالت: "نعم". فقدم لها باقة من الزهور الحمراء قائلًا: "الدكتور علي في انتظاركما في الداخل."

وجدت نفسها تبتسم رغمًا عنها وتقرب الورد من أنفها لتستمتع برائحته الزكية، فهذه وردتها المفضلة.

قادهما أحد العاملين إلى الطاولة التي يجلس عليها علي ووالدته، قام علي لاستقبالهما، فاتسعت عيناها دهشة؛ أليس هذا هو من رأته في حفل الاستقبال؟ هل هو نفس الشخص الذي زارهم في المنزل أم أنه شخص

آخر؟ وهل عرفها أم لا؟

انتبهت فاطمة على صوت والدتها وهي تسلم على والدته فوجدت أنها ما زالت تحدق به وهو ينظر لها مبتسمًا. شعرت بحرارة تسري في وجنتيها، فخفضت بصرها سريعًا وسلمت على والدته، التي نظرت إليها ضاحكةً وقالت: "أهلًا بمن سلبت ابني عقله"، وتبادلت الضحكات مع والدتها وهي في قمة الاضطراب والإحراج.

*****

توجه علي بالحديث إلى والدة فاطمة قائلًا: "هل تسمحين لي أن أجلس مع فاطمة على طاولة أخرى بجانبكما؟"

أومأت برأسها قائلة: "بالطبع تفضل"، مع نظرة متوعدة لفاطمة إن رفضت.

وبمجرد أن جلسا معًا قال لها مبتسمًا: "بلى، أنا هو".

نظرت له متفاجئة بما قال، فأضاف: "وجدتك تتساءلين، أليس هو من رأيته صباحا؟"

نظرت له فاطمة مندهشة. فهي على يقين أنها لم تنطق هذا السؤال قط.

استمر في حديثه قائلًا: "ونعم كنت أعلم أنك أنتِ، بل تعمدت أن أحدثك لأتأكد من شيء، وتأكدت منه فعلًا".

وهنا لم تستطع الصمت، فقالت: "ماذا تقصد؟"

"الحمد لله، أخيرا تعطفتِ وتحدثتِ معي، والآن هلا استمعتِ إلي؟"

لم ينتظر الإجابة بل بدأ في الحديث مباشرة.

"عندما حضرنا لزيارتكم المرة السابقة لم تكن تلك المرة الأولى التي أراكِ فيها. رأيتك قبل عدة أيام في حفل استقبال الطلاب الجدد في كلية طب الأسنان، وسمعت صديقتك تناديكِ ب "فاطمة"، وبدون دخول في تفاصيل ستعرفينها بعد زواجنا إن شاء الله...."

قاطعته قائلة: "زواجنا؟؟؟؟"

نظر لها مبتسمًا وقال: "نعم زواجنا. ومن فضلك استمعي إلي دون مقاطعة". ثم أكمل قائلًا: "سرت وراءكِ حتى البيت، واستفسرت من البواب لديكم عن هاتف والدك، ثم طلبت من أبي أن يحادث والدك ليحدد لنا موعدًا لديكم. في الواقع لم أكن في حاجة لهذه المقابلة فقد قررت منذ أن رأيتك أن تكوني زوجتي، حتى أنني لم أنتبه أنه لم يدر بيننا أي حوار في هذا اللقاء. وعلى الرغم من أنني قد استمعت لكل كلمة دارت بينك وبين سلمى أختي، إلا أنكِ لم تلاحظي ذلك. كنت أشعر بسعادة غامرة للتآلف الذي حدث بين أسرتينا، واعتبرت أنه لم يتبق إلا تحديد موعدًا للخطبة. وبمجرد وصولي البيت طلبت من أبي أن يتصل بوالدك لتحديد موعدها. ولكن بعد أن اختليت بنفسي انتبهت إلى أننا لم نتحدث بل إنكِ لم تنظري لي من الأساس، وقلت في نفسي قد يكون الأمر محسومًا بالنسبة لي ولكنه ليس كذلك بالنسبة لك بالتأكيد. وعليه توقعت أحد الأمرين؛ إما أنكِ قد رأيتني قبلًا كما رأيتك أو أنك قد اتخذت قرارًا بالرفض قبل المقابلة. وبعد أن

أخبرني والدك برفضك، فكرت في أمرين؛ إما أن في حياتك شخصًا آخر أو أنك ترفضين الزواج لسبب لا أعرفه".

سكت قليلًا وكأنه يحاول سبر أغوارها. كانت الدهشة مرسومةً على وجهها بدرجة كبيرة. لم يكن كما ظنته البتة.

أكمل كلامه قائلًا: "والآن أريد أن أسألك سؤالا وأرجو أن تجيبيني بصراحة، وأعدك أن ما تقولينه سوف يبقى سرًا. هل هناك ارتباط بينك وبين أي شخص آخر؟ إذا كانت إجابتك نعم، فأعدك أنني سأنسحب بهدوء دون أن أتفوه عنكِ بأي كلمة، وأخبر الجميع أنني فشلت في أن أقنعك بنفسي. أما إذا لم يكن هناك أي شخص، ففقط أخبريني أن أكمل حديثي".

قالت دون وعي منها: "هلا أكملت حديثك؟"

اتسعت ابتسامته وقال: "ظننتك أولا طالبة في كلية طب الأسنان، ولكن بعد أن تحدث والدي مع والدك عرفت أنك طالبة في كلية الهندسة، واليوم فهمت سبب وجودك هناك في هذا اليوم، كنت مع صديقتك التي حضرت معك اليوم."

"نعم، أسماء صديقتي منذ الصغر لم نفترق سوى في الكلية، لذا تجد كل منا تذهب مع الأخرى متى سنحت لنا الظروف".

"إذن فأنا مدين لها بالشكر لأنها كانت سببًا في لقائنا".

ابتسمت بخجل ثم سألته: "هل ستدرس لي هذا العام؟"

نظر لها مندهشًا وقال ضاحكًا: "يبدو أنك لم تعرفي عني أي شيء. أنا معيد في كلية طب الأسنان لا كلية الهندسة."

شعرت بالإحراج الشديد وقالت: "ولكنك اليوم.... "

نعم كنت اليوم موجودًا لديكم. وضحك قائلًا: "أنا أيضًا لدي صديق في كلية الهندسة. وقد أخبرتك أنني أردت أن أتأكد من شيء ما. كنت أريد أن أتأكد أنك لم تريني في لقاء الرؤية، فسألت صديقي حازم عن موعد حفل الاستقبال ودعوت الله أن تأتي، وقد كان. وتأكدت فعلًا من عدم معرفتك بي بعد أن حدثتك وأخبرتك باسمي ولم تتعرفي علي بأي شكل من الأشكال".

شردت فاطمة في كلماته وقد شعرت أنها أهدأ نفسًا وأكثر تقبلًا له.

قطع أفكارها قائلًا: "هل أتصل بوالدك لأحدد موعدًا للخطبة؟"

ابتسمت له قائلة: "هلا أمهلتني لأستخير؟"

"إذن سأتصل صباح الغد إن شاء الله، وربما حددنا موعدًا لعقد القران بدلًا من الخطبة".

رفعت رأسها له بحدة. شعرت بالخوف. ولكن ابتسامته طمأنتها ولاسيما عندما قال: "أعدك أنك لن تندمي".

*****

سألتني أمي أثناء عودتنا عما دار بيني وبين فاطمة. ابتسمت وقلت لها: "كل خير يا أمي دعواتك."

نظرت لي مغتاظة وقالت: "هلا أوضحت لي هذا الخير؟"

"معذرة يا أمي، فما بيني وبين زوجتي ليس للنشر".

نظرت لي أمي بذهول وضربت كفًا بكف قائلة: "زوجتك؟ أولا تنتظر حتى تتقبلك من الأساس."

نظرت لها قائلًا: "ستفعل بإذن الله."

وبعد وصولنا البيت طلبت من أبي أن يحادث والد فاطمة في الصباح ويتفق معه على موعد نذهب إليهم فيه لنتحدث في التفاصيل.

جفاني النوم في هذه الليلة. ظللت أتذكر حديثنا. ملامحها الرقيقة ونظرات الدهشة المرتسمة عليها. صليت ركعتين لقضاء الحاجة وسألت الله أن يجمع بيننا قريبًا في الخير.

*****

قطع صوت أذان الفجر سيل الذكريات التي تدفقت في رأسي. وجدتني أرفع رأسي لا إراديًا للسماء لأرى ما أريتها إياه قبلًا، وابتسمت رغمًا عني، لكنها كانت ابتسامة مريرة على الرغم من جمال الذكرى. شعرت بحاجتي إليها وإلى وجودها بجانبي كما كانت دائمًا، لكن ذلك لم يعد متاحًا كما كان قبلًا. لم يتبق لي منها سوى ذكريات محفوظة في كتاب. صعدت إلى غرفتي

لأصلي الفجر ثم أحضر مذكراتها لأقرأ ما خطته بيمينها عله يغسل أوجاعي وآلامي. ولكني قررت في هذه المرة أن أكمل الحكاية، فالمذكرات تحوي ما كتبته فاطمة فقط، أي أنها تحوي فقط نصف الحكاية، فلم لا أكمل النصف الآخر، لأرى الصورة بأكملها كما لم أرها قبلًا؟ لا بأس بذلك، فلم يعد لدي شيئًا أخفيه. بعد كل موقف ترويه فاطمة سأروي الوجه الآخر لنفس الموقف، لتكتمل الصورة، ووقتها فقط سأتأكد من صدق المقولة "إذا أردت أن تنسى شخصًا وتخرجه من داخلك، اكتب عنه". فلربما كانت تلك هي الطريقة التي استعملتها فاطمة لتنساني.

*****

"ولا الضالين... آمين".

"مبارك يا فاطمة، مبارك يا علي".

تلقيت وعلي التهاني من أسرتينا، ثم قال لي والد علي ما لن أنساه أبدًا: "تشرفنا اليوم بك في عائلتنا".

وبينما كان والدانا يتفقان على موعد الخطبة، اختلست النظر لعلي. كنت أريد أن أنظر إليه مباشرة ولكني استحييت. وجدته منسجمًا في الحديث مع أخي. شعرت ببعض الاضطراب. لم لا ينظر إلي؟ لم لا يتحدث معي؟

اتفق والدانا أن يكون موعد الخطبة بعد عشرة أيام، ففاجئني علي بطلبه من أبي أن يكون عقدًا وليس خطبة، ولكن أبي رفض ذلك بشكل قاطع

وقال له: "أفضل أن يكون العقد والزفاف معًا". لأتلقى المفاجأة الثانية من علي الذي قال: "فأذن لي أن يكون ذلك في إجازة منتصف العام".

نظرت له متفاجئة بما يقول، فوجدت أنه لا يعير وجودي أي انتباه ولا ينظر لي من الأساس. شعرت بالضيق واستأذنت ودخلت غرفتي.

لحقت بي أمي لتخبرني أن هذا تصرف لا يليق، ونهرتني لأعود. فوجدت أبي يقول: "لا مانع لدي إذا سارت الأمور على ما يرام وارتاحت فاطمة ووافقت. دع كل شيء لوقته يا دكتور".

نظرت لأبي ممتنة ودعوت الله أن يبارك لنا فيه ولا يحرمنا منه. دائمًا ما يقدر أبي رأيي ويثمنه رغم حزمه وصرامته.

اتفق أبي مع علي أن يأتي إلينا مرة كل أسبوع لنتعارف على بعضنا البعض، ليكون كل منا رأيًا عن الآخر.

*****

التزم علي باتفاقه مع أبي بأن يأتي لزيارتنا مرة كل أسبوع. واليوم هو موعد زيارته لنا. لكني لن أخرج من غرفتي لمقابلته. فطوال زياراته لا يعيرني أي انتباه، فقط يجلس مع أخواي ويتبادلون الحديث والسمر، بل إنهم في المرة السابقة لعبوا معا بلاي استيشن!

لست أدري هل يأتي ليراني ويتعرف علي أم ليتعرف عليهما. هو حتى لم يهتم بمعرفة رقم هاتفي. أشعر بالاضطراب. لا أدري ماذا يريد مني. لم لا يريد أن يتعرف علي؟ لماذا أشعر أنه ليس علي الذي قابلته و...

وماذا؟ هل أحببته؟ لا أظن، إنما جذبني حلو حديثه وابتسامته. لكنه مختلف تمامًا عن تلك المرة. لم يوجه لي سوى بعض كلمات بسيطة. والأدهى أنه كان يريد عقد قران بدلا من الخطبة. الحمد لله أن أبي لم يستجب له.

على كل لن أخرج له هذه المرة ولنرى إن كان سيشعر بعدم وجودي أم لا.

نادتني أمي لتخبرني أن عليًا قد أتى. تفاجأت أمي عندما دخلت غرفتي أنني لم أبدل ملابسي لمقابلته. أخبرتها أنني أشعر ببعض التعب لذا لن أخرج لمقابلته. نهرتني أمي لذلك، لكنني أصررت على موقفي، وأخبرتها أنني سأستعد للغد، فهو أول أيام دراستي الجامعية.

وبينما أنا ساهمة أفكر، وصلتني رسالة على هاتفي.

"لن أذهب حتى أراكِ، كيف يمكنك أن تحرميني من نظرة أحيا بها أسبوعًا كاملًا؟"

اضطربت وشعرت بالحرارة تسري في أوصالي، هل هو علي حقا؟ لم أظنه يملك رقم هاتفي. لم أظنه سيشعر بغيابي، لم يفعل بي ذلك؟؟

هممت بالقيام لأغير ثيابي وأخرج إليه، ولكنني تراجعت وقد شعرت بالرغبة في مناكفته. أمسكت هاتفي وأرسلت له قائلة: "من أنت، هل لي أن أعرف المرسل؟"

لم تمض ثوان حتى رد قائلًا: "تُسائِلني مَن أنتَ وهي عَليمةٌ وهل بِفتىً مثليَ عَلى حاله نُكر"[1]

---

[1] أبو فراس الحمداني

لم أستطع أن أمنع ابتسامتي، نهضت وارتديت ثيابًا مناسبة وخرجت مبتسمة. ابتسم حين رآني ورحب بي قائلًا: "أشرقت الأنوار"، ثم غض بصره عني وأكمل حديثه مع أخي!

لم أدر هل أبتسم أم أبكي، لماذا كل هذه الحيرة التي يضعني فيها؟

نادت أمي على أخي فاستأذن من علي وذهب إليها.

وجدته يقول لي: "هل تفعلي ذلك أيضًا عندما تتوترين خارج المنزل؟"

نظرت له قائلة: "ماذا تقصد؟"

قال: "لاحظت أنك تحركين قدميك في مكانهما بعصبية حينما تتوترين، فهل ذلك في المنزل فقط أم في كل مكان؟"

كنت أفعل ذلك حقا بطريقة لا إرادية دائمًا، ولكن كيف انتبه لذلك؟

قلت: "نعم، هي حركة لا إرادية".

فقال: "هلا حاولت أن تتحكمي فيها ولو خارج المنزل، لا أريد أن يرى أحد ضعفك. أريدك قوية دائمًا"

نظرت له وقد ترقرق الدمع في عيني. لا يمكنني أن أفهمه. ماذا يريد مني؟ لو قال لا أريد أن يراك أحد غيري هكذا، لظننته يريد أن يتحكم في ويملكني، ولكنه يقول إنه يريد للجميع أن يراني قوية.

وكأنه شعر بما يدور بداخلي فقال: "أشعر بكل ما يدور في داخلك، وكل ما أرجوه منك أن تثقي في وأعدك أنك لن تندمي".

*****

في ذاك اليوم غادرت منزل فاطمة وقلبي يحترق من عبرات ترقرقت في عينيها بسببي. لكم وددت أن أضمها إلي وأمسح عنها الحزن. يقتلني أن أكون سبب حزنها وفي نفس الوقت لا أريد أن أنظر إليها نظرة حرام. هي أنقى من أن أفعل بها ذلك. يؤلمني أنها تظنني لا أكترث لها وهي الهواء الذي أتنفسه. هل أخبر سلمى أن تتحدث معها وتشرح لها وجهة نظري؟ أم أخبر أخيها ليفعل ذلك؟

لا، لن أسمح أن يتدخل أحد بيننا، سوف أرسل لها رسالة لأخبرها بما أفكر فيه.

ولكني عاهدت نفسي ألا أفتح بيننا بابًا تكون فيه خلوة.

يا رب ألهمني الصواب وهون الأيام، واجمعني بها قريبًا يا رب.

فكرت في أمر ما. غدا أول أيام الدراسة، لابد أن أجعله يوما مميزًا لفاطمة. قررت أن أجعلها تبتسم من قلبها.

وفي الصباح أتيت أسفل منزلها قبل خروجها ووضعت لها باقة زهور على سيارتها ومعها مفكرة مكتوب عليها "ويحملني الحنين إليك طفلًا وقد سلب الزمان الصبر مني"[1]

تلفتت فاطمة حولها تفتش عمن وضع الزهور. ترددت قليلًا ثم احتضنت الزهور وابتسمت وانطلقت بسيارتها.

---

1 فاروق جويدة

انطلقت خلفها، وكما توقعت، مرت على صديقتها أسماء وانطلقا معًا للجامعة. فعلى الرغم من أن أول أيام الدراسة في طب أسنان غدًا، إلا أنني توقعت أن تصطحب فاطمة أسماء معها، كما سأصاحب أنا حازم أيضًا.

لم يكن هناك سبب لذهابي، فلن أجلس معها أو أحاول أن أحدثها. فقط أردت أن أكون بجانبها لتطمئن. أرسلت لها رسالة مكتوبًا فيها "سأكون قريبًا حتى إذا ما احتجت أي شيء تجدينني جوارك. أعدك أن أكون بجانبك مع كل بداية".

*****

بمجرد أن دخلت أسماء السيارة، أطلقت ضحكة خبيثة وقالت: "الورد جميل – جميل الورد".

ثم قالت: "أخبريني سريعًا كيف وصلت تلك الباقة لسيارتك؟ وهل لها علاقة بالسيارة التي كانت تقف خلف سيارتك وتسير ورائنا الآن؟"

ضغطت فرامل السيارة فجأة لأنظر للخلف لأتفاجأ بعلي يضغط فرامل سيارته التي أصدرت صريرًا مرتفعًا للغاية لتقف قبل خطوات قليلة من الاصطدام بسيارتي. نظرت في المرآة متفاجئة؛ لم أنتبه أنه يسير خلفي. نظرت إلى أسماء وقلت: "كيف لم أنتبه له؟"

قالت لي بعد أن التقطت أنفاسها إثر الفزع الذي أصابها جراء الوقوف المفاجئ: "هل فقدت عقلك، كيف تقفين بالسيارة هكذا؟"

رن هاتفي فوجدته علي يسألني عما حدث وجعلني أقف بتلك الطريقة. أجبته وأنا في قمة الإحراج "لا شيء؛ فقط انتبهت لكونك خلفي."

لابد أنه في تلك اللحظة شعر أنه ارتبط بفتاة خرقاء، فقد صمت تمامًا ثم أطلق ضحكة طويلة وقال "لا تعليق، سوف أخبرك بعد ذلك أنني خلفك كي أتجنب الاصطدام؛ فلن تسلم الجرة في كل مرة".

أنهينا الاتصال، ونظرت لأسماء مغتاظة وقلت لها: "أنت السبب، فلولاك ما ....."

قاطعتني وغمزت قائلة: "لولاي ما استمعتِ لصوته".

تظاهرت بعدم الاكتراث ثم أكملت طريقي نحو الجامعة. كان ذهني منشغلًا بعلي. ترى لماذا يسير ورائي؟ هل يود الحديث معي في الجامعة؟ لكنه لا يتحدث معي في الأساس عندما يأتي إلينا، فهل تراه يريد التحدث معي وحدنا؟ ولكنني لن أقبل بذلك.

قطعت أسماء حبل أفكاري قائلة: "لم تخبريني كيف وصلت الزهور للسيارة يا آنستي".

ابتسمت وقلت: "وجدتها على السيارة".

قالت بمكر: "إممممم، ووضعتها في سيارتك ببساطة دون أن تعرفي من وضعها، ألم يكن معها بطاقة بالاسم أو شيء من هذا القبيل؟؟"

ضحكت وقلت: "يا لكِ من فضولية".

*****

لم تستطع أسماء أن تدخل معي الكلية كونها لا تحمل بطاقة هوية الكلية.

أسقط في يدي، ولم أدر ماذا أفعل. كنت أشعر بالرهبة الشديدة ووجود أسماء بجانبي كان يدعمني نفسيًا على الأقل.

أخبرتني أسماء أنها ستنتظرني في السيارة حتى أدخل وأرى كيف ستسير الأمور، على أن أتصل بها لنتفق على ما سيكون.

وخطوت أولى خطواتي داخل الكلية، ذهبت لقاعة المحاضرات، ودخلت واخترت مقعدًا منعزلًا إلى حد ما، اتصلت بأسماء وطمأنتها أنني دخلت، وعند مراقبتي لباب القاعة انتظارًا لدخول المحاضر. رأيت عليًا يخرج من القاعة بصحبة شخص ما، ولم تمر دقائق عشر، إلا ورأيت أسماء تدخل من باب القاعة، وتتجه نحوي مبتسمة. نظرت لها غير مستوعبة لوجودها. جلست بجواري وقالت: "فوجئت بالدكتور علي أمام السيارة وأشار لي بالنزول، عرفني بنفسه وبصديقه حازم، ودخلت معهما. لماذا لم تخبريني أنك أرسلته؟"

لم أستوعب الأمر في البداية، وأفقت على صوت رسالة على هاتفي، فتحتها لأجده يقول "اطمئني، أمنياتك أوامر".

كيف يمكنه أن يفعل بي ذلك؟ كيف يمكنه أن يعرف ما أريد ويفعله دون أن أخبره؟!

"سأكون قريبًا حتى إذا ما احتجت أي شيء تجدينني جوارك..." تذكرت كلمات رسالته التي أرسلها لي صباحًا، وابتسمت، فقد وعد فأوفى.

وجدته موجودًا معي في أول محاضرة وفي أول "سيكشن"، وجدته في كل بداية، تمامًا كما قال.

*****

دعانا والدا علي لتناول الغداء، وذهبنا. لاحظت أن بيتهم مبني بطريقة غريبة بعض الشيء. لم أستطع أن أستوعبه جيدًا حين دخولنا. وبعد الغداء، اصطحبنا والده لنرى شقة علي. أخبرنا أنه عندما بنى هذا البيت، فكر أن يكون لكل ابن له شقة فيه، ولكنه عاد وتراجع بسبب خوفه من الخلافات التي تحدث في السكن العائلي، ففكر أن يبني البيت بطريقة مختلفة بعض الشيء. فقسم قطعة الأرض إلى جزأين وبنى على كل جزء منهما بيتًا منفصلًا من طابقين، ولكل طابق مدخل خاص به عكس الطابق الآخر، بحيث أن من يصعد للطابق الأعلى لا يمر على الطابق الأسفل. ويربط البيتين حديقة غناء، قال إنها الشيء الوحيد المشترك، ثم أضاف: "شقة علي هنا في هذا البيت يا فاطمة في الطابق الأعلى، بمدخل منفصل كما أخبرتك، كونه أكبر أبنائي بعد سلمى، والبيت الآخر لأخوي علي، ولكن يا ابنتي لك حرية الاختيار، فإن أردت السكن في البيت الآخر، فهذا حقك، ولن تكون هناك أي حساسيات في هذا الأمر، كل ما أريدك أن تتأكدي منه، أننا في الحالتين سوف نكون جيرانًا فقط، لن نتدخل في حياتكما بأي شكل من الأشكال إلا بالقدر الذي تحددوه أنتما معًا. قد يتبادر لذهنك سؤال أن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم أترك لكل ابن من أبنائي حرية السكن في المكان الذي يريد سواءً بعيدًا أو قريبًا، لكن يا ابنتي البعد ليس بالأمر الهين، وكلما كان الأهل

قريبين كلما كان ذلك أفضل للجميع طالما أن النفوس نقية والحدود مرعية، ومع ذلك فإن أردت أن يكون سكنك في مكان آخر، فلكِ ما أردت".

كنت أنظر له مبهورة، منذ أن دخل هذا الرجل بيتنا للمرة الأولى وهو مستمر في إبهاري.

نظر له أبي ممتنًا وقال إنه يزداد اطمئنانًا علي يومًا بعد يوم في وجوده، وشكره على حسن أدبه وضيافته.

ثم توجه لي حماي العزيز بالحديث قائلا: "والآن دعينا نصعد للطابق الأعلى ثم نذهب للمبنى الآخر لتختاري".

أفقت من انبهاري وقلت مبتسمة: "لا بأس يا عماه، لن أذهب للمبنى الآخر، فإذا قدر الله لنا الزواج، فسأسكن في الطابق العلوي إن شاء الله. ولكن لدي سؤال "هل يشبهك علي؟"

نظرت لي أمي شذرًا، بينما انفجر حماي ضاحكًا وقال: "بل هو أكثر وسامة، ألم تنظري إليه؟"

شعرت بالحرج قليلًا وقلت: "قصدت الشبه في الطباع، فالحقيقة أنني معجبة كثيرًا بشخصية حضرتك، ولن أنسى ما حييت كلماتك التي قلتها لي الآن أو قبلًا."

أجابني قائلا: "علي به الكثير من طباعي، ولكنه يتعامل بعاطفته أكثر من عقله، وقد تحجب عنه عاطفته بعض الأمور التي يحتاج لوزنها بميزان العقل. أما أنا فعقلي يغلب عاطفتي، ولكن ليس للدرجة التي تجعلني حادًا في التعامل."

أطرقت برأسي وقلت: "لكنني يا عماه مثلك، يغلب عقلي عاطفتي". وصمت ولكن معنى كلامي كان مفهومًا.

فنظر لي قائلا: "الزواج يا ابنتي علاقة تكاملية، يكمل فيه كل طرف الطرف الآخر. بل لن أبالغ لو قلت إنه إذا تميز الطرفان بنفس الطباع فلن يكتمل هذا الزواج بأي حال من الأحوال مهما استمر، تخيلي معي لو كان الزوجان عقلانيين، بالطبع ستكون الحياة جافة وحادة ولا روح فيها، وبالمثل لو كانا عاطفيين، ستتفلت الحياة من بين أيديهما وسيخسران الكثير من الأمور بسبب عدم وزن الأمور بميزان العقل. وصدقيني، المرأة مهما كانت عقلانية إلا أن بداخلها عاطفة جياشة تنتظر من يستثيرها، على عكس الرجل، فلو كان عقلانيا، فهو يحتاج مجهودًا جبارًا من أي امرأة لتستثير عواطفه. أنت تريني الآن بعين الابنة لأبيها لذلك تشعرين نحوي بالإعجاب، لكن هناك فرق كبير بين علاقة الأبوة والعلاقة الزوجية. الأيام والخبرات تثقل العقل وترجحه، وليس دفاعًا عن علي، ولكنه يتميز بعقل راجح بالإضافة لعاطفته."

نظرت له ممتنة. أزال كلامه الكثير من الحيرة والخوف من داخلي، وأشعرني براحة كبيرة.

صعدنا جميعًا للطابق الأعلى، وسألني علي عن الألوان التي أفضلها، فأجبته. ثم توجه علي للحديث مع أبي قائلًا: "هل يمكننا إتمام الزواج في إجازة منتصف العام يا عماه؟"

قال أبي: "لا مانع لدي يا بني، ولكن المهم رأي فاطمة."

نظر لي علي يرجوني أن أوافق. كنت أشعر بالحيرة، عقلي يقول لا، ولكن قلبي يشدني شدًا. يبدو أن والد علي كان محقًا بخصوص العاطفة التي تنتظر من يستثيرها.

في هذا الوقت كنت أتمنى أن يمر الفصل الدراسي الأول سريعا كي يتم زواجي من فاطمة. لكن أكثر ما كان يقلقني أن ترفض فاطمة إتمام زواجنا في إجازة منتصف العام.

دعوت الله أن يقدر لنا الخير ويجمع بيننا قريبًا في الخير.

*****

اقترب موعد اختبارات الفصل الدراسي الأول. أشعر بالاضطراب كثيرًا؛ يصر علي أن يكون زفافنا في إجازة منتصف العام، لكني أخشى تلك الخطوة كثيرًا. لا أنكر أن قلبي يميل إليه كثيرًا، ولكن عقلي يرفض تلك العجلة.

سألني أبي عن رأيي حتى يتمكن من الرد على "علي"، فنقلت له مخاوفي. أخبرته أن هناك صراع بين عقلي وقلبي. صحيح أنني أجد قلبي يميل له كثيرًا ولكن عقلي يرفض ذلك. أنا لا أعرفه، على الرغم من أنه يأتي إلينا أسبوعيًا، إلا أننا تقريبًا لا نتحدث. قلما يتحدث معي، ورغم ذلك، فمتى احتجته أجده، وكأن هناك رابط بيننا، وكأنه يسبر أغواري ويعلم حاجتي. أخبرت أبي عما حدث يوم أن قابلته وأمي، وأخبرته عن أول أيام الدراسة وكيف كان موجودًا، وكيف أدخل أسماء لتحضر معي يومي الأول.

استمع لي أبي بتركيز شديد، ثم ابتسم وقال لي: "لا عليكِ يا حبيبتي، اعلمي أنني وإن كنت أحرص على زواجك مبكرًا، إلا أنني لن ألقي بك فيما لا ترغبين، وأنا وإن كنت راضيًا عن "علي"، إلا أن تلك الزيجة لن تتم إلا إن اطمأننتِ تمامًا. ولذا سأخبر "علي" أن الزواج إن شاء الله سيكون في إجازة آخر العام لا منتصف العام.

*****

حدث ما كنت أخشاه.

أخبرني والد "فاطمة" أن زواجنا لن يكون في إجازة منتصف العام، بل في إجازة آخر العام إن قدر الله لنا الاستمرار.

حاولت إقناعه بشتى الطرق ولكنه أصر على الرفض.

كنت متأكدًا أن فاطمة هي من ترفض ذلك. حاولت التحدث مع أخيها ليقنعها، ولكنه أخبرني أنني من يجب أن أقنعها ولا أحد غيري.

الحق معه.

المشكلة أنني قد رسمت طريقًا لعلاقتي بزوجتي المستقبلية حتى قبل أن أرى فاطمة. ولا أريد أن أحيد عنه. صحيح أنني اضطررت لبعض التجاوزات فأرسلت لها بعض الرسائل في أوقات معينة، لكني لا أريد أن أزيد.

حدثتني سلمى أنها تحدثت مع فاطمة وأنها اقتنعت بوجهة نظرها في التأجيل، ففاطمة تشعر بالرهبة من أن تتزوج من شخص لا تعرفه حتى وإن كان قلبها يميل إليه، وأنني لابد من أن أتحدث معها وأتقرب إليها ليتعرف

كل منا على الآخر.

أسعدني كلام سلمى أيما سعادة، وأشعرني بالاطمئنان.

هكذا إذن؛ لقد مال قلبها إلي.

قبلت رأس سلمى، فقد طمأنت قلبي دون أن تدري. تركتها مسرورًا وهي تتابعني بنظرات دهشة ولسان حالها يقول أنني قد فقدت عقلي تمامًا.

*****

أوشك العام الدراسي على الانتهاء، واقترب موعد زواجنا. لا أنكر أن الكثير من القلق قد ولى، يبدو أن للقلب أحكام.

وقد كان "علي" عازفًا ماهرًا على أوتار قلبي حتى وإن لم نتكلم سويًا.

وقبل يوم زواجي جلس معي أبي وقال: "يوم أن وُلِدت سميتك "فاطمة الزهراء" تيمنًا ببنت رسول الله؛ فكان اسمك مثل اسمها؛ "فاطمة الزهراء محمد". وأحببتك حبًا جمًا؛ تمامًا كما كانت رضي الله عنها أقرب أبنائه لقلبه. فلا تظني يومًا أني زوجتك وأنت صغيرة السن رغبةً في التخلص من مسؤوليتك، فلا شيء أحب إلي من قربك، ولكن يا قرة العين، هذه الفترة من حياة الفتى والفتاة هي ذروة الرغبة الجنسية، ولو نظرتِ للغرب لوجدتِ أن في هذا العمر ينفصل الفتى والفتاة عن أسرهم ليستقل كل منهما بحياته ويشبع رغباته. فلم نفرض على أبنائنا كبت رغباتهم إذا يسر الله لنا الحلال؟

وعلى ذلك؛ فقد قررت منذ زمن مضى أن أزوج أبنائي في هذا العمر إذا ما أغناني الله من فضله. وقد ربيتكم على تحمل المسؤولية وعودت أخويك على العمل منذ بلوغهما، حتى إذا ما أراد أحدهما الزواج كان مستعدًا له.

واعلمي يا مهجة القلب أنني سأظل داعمًا لكِ ما حييت، ولا يعني انتقالك لولاية زوجك أن أتخلى عنكِ. وأود أن أوصيكِ بتقوى الله في زوجك ومعاملته بما يرضيه عنك. واعلمي أن طاعة الزوج مقدمة على من سواه فيما لا يغضب الله، فاحرصي على طاعته، "فكوني له أمةً يكن لكِ عبدًا"[1]. لا تتعاملي مع زوجك بندية، فلا رجلًا يقبل بذلك أبدًا من زوجته. فإذا ما فعلت ذلك ملكت قلبه وعقله".

انتهى أبي من كلامه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فوجدت نفسي احتضنه وأنا أبكي وأعاهده أن أحفظ تربيته ووصيته وألا أخون ثقته أبدًا.

أعطاني أبي كذلك بطاقةً ائتمانيةً، وأخبرني أنه قد أودع فيها مبلغًا ماليًا كي أنفق منه كيفما أريد، وأخبرني أن عليًا مازال في بداية حياته ولا ينبغي أن أثقل عليه. وفي نفس الوقت لا يريدني أبي أن أشعر أنه ينقصني شيئًا ما. أخبرني كذلك أنه سوف يودع في هذا الحساب مصروفات دراستي كل عام كي لا يكلف زوجي ما لا يطيق، وشدد عليَّ ألا أخبره بذلك كي لا يشعر بالإهانة.

---

[1] من وصية أم لابنتها لأمامة بنت الحارث

آه يا أبي، كم أحبك وأحب اهتمامك بكل تفاصيلنا. لا حرمني الله منك أبدًا.

ويوم زواجنا، تلقيت رسالة من علي في الصباح مكتوب فيها "هلا حصلتِ على قسط وافر من النوم اليوم، فليلنا سيكون طويلًا ولا مجال للنوم فيه".

شعرت بحمرة الخجل تغزو وجهي وابتسمت، ليرن هاتفي مرة أخرى معلنًا وصول رسالة جديدة مكتوب فيها "أرجو ألا تفهمي كلامي بشكل صحيح" وبجوارها وجه ضاحك.

*****

البداية

بعد يوم طويل وصلنا بيتنا لتبدأ حياتنا معًا. أغلق عليٌ الباب بعد أن ودعنا الجميع. واستدار لينظر إلي قائلًا: "وأخيرًا".

كنت أشعر بالاضطراب أكثر من الخجل. لاحظ عليٌ ذلك فاقترب مني مبتسمًا وقال: "نصلي أولًا ثم نتحدث، ما رأيك؟"

أمني في ركعتين خفيفتين ثم وضع يده على مقدمة رأسي قائلًا: "اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما جبلتَها عليهِ وأعوذُ بِكَ من شرِّها ومن شرِّ ما جبلتَها عليهِ"[1]

ثم ابتسم ابتسامةً مطمئنةً وقال: "والآن دعيني أوضح لك كل ما كان سببًا في حيرتك منذ خطبتنا. بداية، يمكنك اعتبار اليوم هو يوم خطبتنا وليس زواجنا".

نظرت له مندهشة مما يقول، لم أستوعب مقصده، فنظرت له وقلت: "لم أفهم".

ضحك ضحكة عالية وقال: "أعلم ذلك، وإنما أردت أن أرى تلك النظرة في عينيك لأبدأ الحديث، فاسمعيني. لم نحظ بفترة خطوبة تمكننا من معرفة بعضنا البعض، وأنا أعلم أن ذلك هو سبب اضطرابك وخوفك. ولكني كنت أفكر بطريقة مختلفة، وربما لهذا السبب أردت أن أعجل

---

[1] من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الزواج

بالزواج ولكنكِ رفضت، ولك عذرك في ذلك. ولكن وجهة نظري أنه مهما طالت فترة الخطبة فلن يتعرف أي من الخطيبين على الآخر جيدًا، لأنه لا احتكاك حقيقي بينهما. ولأصدقك القول فأنا أميل لأن يحيا الطرفان معًا قبل الزواج حياةً كاملةً ليقررا ما إذا كان بإمكانهما الاستمرار أم لا، تمامًا مثل الغرب؛ يحيا الفتى والفتاة معًا قبل الزواج فترة كافية ليقررا الزواج من عدمه".

شعرت بالصدمة مما يقول، نظرت له غير مستوعبة لما يقوله.

فأكمل ضاحكًا: "بالطبع لو كنت تفوهت بمثل هذا الحديث معك أو مع والدك أو حتى مع والدي لكان دمي مراقًا الآن، ولكن دعيني أكمل حديثي لتفهمي مقصدي".

واستطرد قائلًا: "المشكلة تكمن بالطبع في حرمانية هذه الفكرة، فلا يجوز ذلك شرعًا. فتفتق ذهني أن نبدأ تلك الحياة بعد عقد القران. بمعنى أنه بدايةً من اليوم، سوف نحيا معًا -دون زواج فعلي- حتى يتعرف كل منا على الآخر جيدًا ويعرف طباعه. نحيا كأصدقاء نسافر نلهو نضحك نلعب نتشاجر، نفعل كل ما يحلو لنا معًا، وإذا ما شعر أي منا برغبة في الآخر، وبالطبع سيحدث ذلك شئنا أم أبينا، فيشبع رغباته بما أحل الله. أي أننا سننقل التجربة الغربية في إطار شرعي".

نظرت له وقد راقتني الفكرة كثيرًا. لكم تمنيت أن أحيا قصة حب كالتي أقرأها في الروايات ولكن في إطار شرعي، ولكن لم يتفتق ذهني أبدًا عن مثل هذه الفكرة.

وكأنه قرأ ما يدور في ذهني فأكمل بحماس قائلًا: "يظن كثير من الناس أن الملتزم والملتزمة ليس لديهما أية مشاعر، ويتغافلون عن حقيقة أن لهما نفوسًا تهفو إلى الحب. أتعلمين، عندما أرى أي فتى وفتاة في الجامعة يسيرون معًا وقد تشابكت أياديهم، أو بمن يميل على فتاته ليهمس لها بكلمات حب، فبقدر ما كنت أشعر بالحنق لإغضابهم الله تعالى وبالغضب لاستحلال الحرام، بقدر ما كان قلبي يهفو إلى الحب، وأتساءل بيني وبين نفسي لما صعبنا الحلال ويسرنا الحرام. لماذا لا نتيح لهذا الفتى والفتاة الزواج ليشبعا رغباتهما بما يرضي الله؟ بالطبع أعلم أن الظروف المادية قد تعيق الكثيرين عن فعل ذلك، ولكن على الجانب الآخر يمكننا تذليل كل الصعوبات التي قد تواجههما للزواج إذا كانت هناك رغبة حقيقية في إعفاف الشباب. لذلك كنت أتمنى أن أتزوج بمجرد دخولي الجامعة، ولكن أبي لم يوافق نهائيًا على هذه الفكرة. ثم غمز لي قائلًا، والحمد لله أنه لم يفعل، فما كنت لأحظى بك لو فعل".

أثلج صدري حديثه، ابتسمت له وقد برقت عيناي سعادة بما قال، وددت أن أقوم فاحتضنه، لكني استحيت، فابتسم وقال: "تخبرني لمعة عينيكِ أن أول حائط بيننا قد انهار".

ضحكت وقلت: "يبدو أنك تتقن لغة العيون".

فأجابني قائلًا: "هل تصدقيني إذا قلت لك أن عيناكِ تحدثني من أول يوم رأيتك فيه، لكِ نفس نقية أراها في عينيكِ من أول لحظة رأيتك فيها".

قلت مازحة: "أتعلم أنك تجيد العزف على أوتار قلبي؟ أخبرني كم قلب عزفت على أوتاره قبلًا؟"

ارتفعت ضحكاته كثيرًا وقال: "هكذا إذن، تظنيني دونجوان".

تبادلنا الضحك والمشاكسة، لا أنكر أن كل القلق والاضطراب الذي كان في داخلي قد تبخر. مرت حوالي ساعتين ونحن نتسامر ثم قال لي: "بقى أن أخبرك شيئًا سنفعله سويًا. مما لا شك فيه أننا كمجتمع نعاني من مشكلة كبيرة في الثقافة الجنسية، ومعظم من لديه معلومات عن هذا الأمر استقاها غالبًا من أصدقائه أو من مواقع تبالغ في الأمر كثيرًا، فيرتفع سقف التوقعات، وهذا يسبب الكثير من المشاكل بين الزوجين. ولنتجنب هذه المعضلة، فأثناء فترة خطوبتنا هذه، سنتعلم معًا كل ما يرتبط بهذا الأمر، سواء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية أو من الناحية العاطفية، كي يعرف كل منا ما يحتاجه الآخر فيعطيه له ويتعلم كيف يفعل ذلك. نصف النجاح يكمن في المعرفة والنصف الآخر في تطبيقها. فما رأيك؟ هل توافقين على ذلك؟

قلت: "وهل هذا سؤال، بالطبع أوافق".

فقال: "والآن دعينا نتعاهد على أن نبني حياتنا على المصارحة والصدق قبل أي شيء. تذكري أننا أصدقاء. تخبريني وأخبرك بكل ما يدور في أذهاننا، ولا نسمح لأي من كان بالتدخل بيننا وإفساد علاقتنا. ووقتما يشعر أي منا برغبة في الآخر، يخبره بذلك بطريقة أو بأخرى، فكما أخبرتك هدفنا الأول العفاف. كما أرى أن نؤجل الإنجاب حتى يتيقن كل منا أن الآخر هو

من سيكمل معه للنهاية، فإذا لم يحدث ذلك، لا يكون القرار صعبًا لتأثر أطراف أخرى به. كما أن التأجيل سيساعدك كثيرًا في التركيز في الدراسة."

كنت منبهرة بما يقول، لقد فكر في كل شيء. ترى هل سيكون التنفيذ بمثل سهولة طرحه للفكرة؟ أتمنى ذلك.

أفقت من شرودي على صوته يخبرني أن أغير ملابسي لأننا سنذهب إلى مكان ما. نظرت له متعجبة وقلت: "هل أنت مدرك لما تقول؟ كيف سنخرج من البيت الآن؟"

نظر لي مبتسمًا وقال: "ألم أخبرك أن تنامي جيدًا لأن ليلنا طويل؟"

"لم أقصد ذلك، ولكن إذا رآنا أي شخص وقد خرجنا من البيت بعد ساعتين من زفافنا..؟"

فقال لي بحزم جملة لا أنساها أبدًا: "تلك حياتنا نحياها كما نريد طالما لا نغضب الله، وطالما لا نتدخل في حياة الآخرين، فغير مسموح لأحد بالتدخل في حياتنا. ويجب أن يكون لديك من الشجاعة ما يكفي لتقولي (لا)، غير مسموح لكم بالتدخل أو حتى السؤال. أما عن أهلي فهم يعرفون ذلك جيدًا عني، وكما أخبرك أبي قبلًا، فحياتنا معًا في مكان واحد تجعلنا جيرانًا لا أكثر، وليس من حق الجار أن يسألني أين تذهب".

*****

لم يخبرني عليٌ أثناء قيادته السيارة عن وجهتنا، بل أخبرني أننا سوف نذهب إلى أحب مكان إلى قلبي والذي يصادف أنه أحب مكان إلى قلبه أيضًا. نظرت له متشككة؛ هل يمكن أن يكون ذلك صحيحًا؟ ضحك وقال سترين.

لم نتوقف لحظة واحدة عن الحديث طوال الطريق. شعرت بألفة غريبة معه. لم أظن يومًا أنني قد أتحدث مع أي شخص سوى أسماء هكذا.

حكى لي عن أول يوم رآني فيه، وحكيت له عن شعوري تجاهه في أول زيارة وكيف كنت أراه "بلا شخصية" فانفجر ضاحكًا.

كنت اختلس النظر إليه بين لحظة وأخرى أتأمل ملامحه، لم يتسن لي فعل ذلك قبلًا. وجدتني أقول: "هل تصدق أنني لا أعرف كيف وافقت على استمرار هذه العلاقة رغم أنني حتى لم أتبين ملامحك جيدًا سوى الآن؟"

فأجابني: "لم يتوقف دعائي لحظة واحدة ليحدث ذلك. منذ أن رأيتك وأنا أدعو الله أن يجمعني بك وأن يملكني قلبك. كنت واثقًا أن الله سيستجيب دعائي ولن يخذلني".

لم أنتبه إلى وصولنا إلا حينما توقف عليٌ أمام بوابات المنتزه بالإسكندرية.

نظرت له غير مصدقة، هل نحن هنا حقًا؟ لم أشعر بالطريق من الأساس.

ابتسم قائلًا: "يسعدني أن استمتعتِ بصحبتي".

لم أكن أعلم كيف علم أن المنتزه هي أحب الأماكن لقلبي، ولم أكن أعرف كذلك كيف سندخل الآن وهي مقفلة، ولكن دهشتي لم تطل إذ علمت أن عليًا قد حجز إحدى الغرف في نفس الفندق الذي اعتاد أبي اصطحابنا إليه.

دخلنا إلى غرفتنا وسرعان ما قال لي: "ألا ترغبين في الجلوس على البحر الآن، هيا بنا".

وسرعان ما نزلنا إلى الشاطئ الخاص بالفندق، لم يكن هناك سوانا، فالساعة قد قاربت الثالثة صباحًا، نظرت إليه وقلت: "أنا أخشى الظلام، ويرهبني البحر ليلًا".

اقترب مني هامسًا: "كان ذلك سابقًا، أما اليوم فستكونين معي".

وقتها فقط علمت لما مضيت قدمًا في هذا الزواج رغم قلقي وحيرتي من كل تصرفات علي معي؛ كان ذلك لأنه لم يبخل علي يومًا ببث الطمأنينة داخلي، سواءً بقصد أو بدون.

وجدتني أرتمي بين ذراعيه، أدفن رأسي في صدره، وكأنه ملاذي وأماني، سمعت نبضات قلبه وشعرت بذراعيه يحيطان بي كأنهما قيد لا أريد فكاكه.

وعندما سمعنا أذان الفجر، أمسك علي بوجهي وأشار لخطين رفيعين في السماء قائلًا: "انظري لتتبيني الخيط الأبيض من الخيط الأسود".

نظرت إليه مبهورة بعد أن رأيتهما وسألته "كيف علمت برغبتي في رؤيتهما؟"

ابتسم وقال: "ألم أخبرك أن عيناكِ تحدثاني من أول نظرة؟ ثم طلب مني أن نصعد للصلاة لننزل بعد ذلك سريعًا لمشاهدة أروع مشاهد الشروق.

*****

ثلاثة أشهر مرت على زواجنا.. أقصد خطبتنا.. عرفت فيها معنى العشق الذي كنت أقرأ عنه طوال حياتي. تعلمنا الكثير معًا خلال هذه الفترة، تنزهنا ولعبنا وتشاجرنا وابتعدنا واقتربنا، وكعادته لم يدخر عليٌ وسعًا في سبيل إبهاري.

أتذكر قبل أيام من يوم ميلادي، أخبرني أننا في طريقنا لمغامرة جديدة، حيث قد حجز لنا في إحدى رحلات وادي الحيتان[1] التي تنظمها المجموعات المهتمة بالفلك ورصد الظواهر الفلكية.

أخبرني أنه يعلم مدى شغفي بالنجوم ومراقبة الظواهر الفلكية، ولأن اليوم موعد خسوف القمر[2]، فقد ظن أنني قد أود مشاهدته عن قرب.

---

[1] مكان مميز جداً للرصد الفلكي أو السياحة الفلكية، نظراً لوضوح الرؤية الليلية وبعده عن تلوث وضوضاء المدينة، وتقع محمية وادي الحيتان في القلب من وادي الريان بمحافظة الفيوم.

[2] ظاهرة فلكية تحدث عندما يحجب ظل الأرض ضوء الشمس المنعكس على القمر في الأوضاع العادية. وتحدث هذه الظاهرة عندما تكون الشمس والأرض والقمر في حالة اقتران كوكبي كامل (فيكون خسوفا كليا) أو تقريبي (فيكون خسوفا جزئيا)

لم أدر كيف عرف عني كل ذلك، وكلما سألته قال: "من يهتم لأمر أحد سيسعى ليعرف عنه كل شيء، فما بالك بمتيم عاشق".

وافترشنا الرمال سويًا، لم أعد أخاف الظلام، وكيف أخافه وفيه أكون بين ذراعيه يطمئنني ويحميني.

راقبنا الخسوف معًا، فسألني: "هل تعرفين سبب الخسوف؟"

كنت أعلم السبب العلمي له، ولكني أعلم كذلك أن عليًا لن يسألني عن سببه العلمي، فقلت: "لا".

فقال: "الشمس والقمر كانا مغرمين ببعضهما، ولم يستطيعا أبدًا أن يكونا معًا لاختلاف توقيتهما، فيحدث الخسوف لكي يبرهن أنه ليس هناك حب مستحيل، يتباعدان عمرًا ليلتقيا ساعة ويعبران عن عميق حبهما بالعناق"[1].

ابتسمت وقلت: "فهل تعرف أسطورة النجوم؟"

عقد ما بين حاجبيه وقال: "لا، أخبريني إياها".

ضحكت وقلت: "بل اجتهد لتعرفها".

ولست أدري لم انقبض قلبي في هذه اللحظة خشية الفراق، ولكنني تجاهلت ذلك واستمتعت بقربه.

---

[1] من أساطير الخسوف

ملكت قلبي

عدنا للدراسة، وكان علي معي في أول يوم، تمامًا كما وعدني أن يكون موجودًا في كل بداية.

بالطبع قل الوقت الذي نقضيه معًا، ففي الصباح يذهب كل منا للجامعة، ثم نتقابل ظهرًا لنرتاح قليلًا، ثم يذهب علي إلى عيادته مساءً، وهو ما أتاح لي وقتًا كافيًا للمذاكرة والاهتمام بشئون المنزل.

أما عن أهل علي، فقد كانوا لنا نعم الجيران. صحيح أنني كنت متخوفة من السكن العائلي لما له من سمعة سيئة، ولكن طريقة البناء نفسها أعطتنا الكثير من الخصوصية، كما أن أي منهم لم يحاول فرض وجوده في حياتنا، كنا جيرانًا فقط تمامًا كما أخبرني حمايا العزيز قبلًا.

أما عن علاقتي ب "علي" فقد توطدت كثيرًا، لم يكن يدخر جهدًا لإسعادي، وإشعاري بحبه واهتمامه، بل إنه كان يمر علي أحيانًا في الجامعة لنجلس معًا في الكافيتريا بين المحاضرات كما لو كنا عاشقين. كان يريدني أن أحيا معه قصة حب، لدرجة أن بعض زملاء الجامعة كانوا يتلمزون علينا كلما رأوه قادمًا جهلًا منهم بزواجنا، أخجلني ذلك في البداية، ولكن عندما أخبرت عليًا بذلك، ضحك وقال: "طالما لا نغضب الله، فلسنا مضطرين لأن نبرر أفعالنا، لو كان لديهم الشجاعة الأدبية لسألوكِ أو سألوني، لكن كونهم اكتفوا بالهمز واللمز فلا حاجة لنا بهم".

وعلى الرغم من أن فكرة المغامرة نفسها أسعدتني، إلا أنني ذكرت له موقف حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في اعتكافه، فالسيدة صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم جاءت تزوره في اعتكافه في المسجد، في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي صلى الله عليه وسلم معها يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد، مر رجلان من الأنصار، فسلّما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: "على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي"[1]. هذا ما فعله رسول الله خوفًا من أن يلقي الشيطان في قلبي صاحبيه شيئًا، وهو رسول الله. فكيف لنا أن نجعل من سمعتنا مضغة تلوكها الألسنة؟

نظر لي مبتسمًا وقال: "معك كل الحق، دعينا ننتبه لذلك فيما بعد".

ومضت بنا الأيام معًا. لن أنكر أنني استمتعت كثيرًا بفكرة الخطوبة بعد الزواج. فكرة أن تتعرف على شريك حياتك جيدًا وتعاشره في كل المواقف لتدرك هل هو الشريك المناسب لك حقًا أم لا قبل أن تتزوجا فعليًا، وذلك في إطار الزواج. أن تمر عليكما الكثير من المواقف الخاصة معًا ويرى كل منكما الآخر على حقيقته قبل أن يقرر هل سيستمر في هذه العلاقة أم لا.

---

[1] موقف في السيرة رواه الشيخان

أن نتعلم معًا كل ما يخص الحياة الزوجية قبل أن نمضي فيها قدمًا، ألا يكون بيننا أي خطوط حمراء أو حدود في التعامل لنرى هل يمكننا الاستمرار أم لا، هل ما يريده هو ما أريده أنا أم لا.

أثناء حديثنا معًا في إحدى المرات حول العلاقة الزوجية وطبيعتها، قرأنا جملة مفادها أن الزوجة تعطي زوجها ما يريد كيفما يريد إذا عشقته، بينما يعشق الرجل زوجته إذا أعطته ما يريد كيفما يريد، فالعلاقة الزوجية بالنسبة للمرأة عاطفة تجلب الشهوة أما بالنسبة للرجل فهي شهوة تجلب العاطفة.

نظرت إلى علي وسألته عن مدى صحة هذه العبارة، فأجابني أنها صحيحة إلى حد كبير، فعاطفة الرجل إلى حد كبير شهوة، الفرق يكمن في مدى قدرته على السيطرة على شهوته.

نظرت إليه وقد شعرت بالاضطراب، ترددت قليلًا قبل أن أسأله: "هل يعني ذلك أنك لا تحبني؟"

ابتسم وقال: "بل أحبك كما لم أفعل في حياتي قبلًا، ولكننا ما زلنا في مرحلة الخطوبة، هل نسيتِ؟"

"ألم نتفق على المصارحة، فأصدقني القول، وضح لي معنى الكلام في ضوء ما قرأناه".

تنهد عليٌ وقال: "حسنًا، أجاهد نفسي كثيرًا في هذا الأمر، أريد أن أشعر برغبتك في كما رغبتي فيكِ، أعلم أنني إذا طلبتك فلن ترفضي ولن تتردي في ذلك حتى إرضاءً لله تعالى، ولكنني أرغب أن يحدث الأمر بشكل

تلقائي، أن يجد كل منا نفسه لا يستطيع مقاومة الآخر." ثم أردف ضاحكًا: "وإلى أن يحين هذا الوقت، وعسى أن يكون قريبًا، تكفيني بعض تجاوزات مرحلة الخطوبة".

شعرت بالاختناق واغرورقت عيناي بالدموع، شعرت بقسوتي عليه. لم يدخر جهدًا منذ زواجنا لإرضائي، ومع ذلك أخفقت أن أهبه ما يريد، أخفقت أن أعطه أبسط حقوقه.

مسح عليٌ على وجهي وضمني إليه قائلًا: "لا تبتأسي، لست متعجلًا، وما زلت قادرًا على نفسي. يكفيني أن أعرف أن قلبك أصبح لي، أرى ذلك في عينيك. لقد ملكتِ قلبي من أول نظرة، وسأملك قلبكِ قريبًا، أصبحنا قاب قوسين أو أدنى، فاهدئي".

وكيف لا أهدأ وقد سكنت إليه؟ آه يا علي لو تعلم ماذا يفعل بي حضنك. أكون كالطفلةِ في يدك، كالريشةِ تحملها النسمات[1]

*****

لا أدري هل كنت صادقًا في حواري مع فاطمة عندما أخبرتها، أنني ما زلت قادرًا على نفسي أم لا؟؟ حقًا لا أدري، لكني كنت أشعر وقتها أن قواي تخور يوميًا. لم أعد أستطيع أن أبتعد، كنت أرغبها ولا أريد أن يحدث ذلك دون رغبتها. علمت أنني قد قطعت شوطًا طويلًا لقلبها، ودعوت الله أن يلهمني سبيل الرشاد.

---

[1] نزار قباني

أخبرتها بعد ذلك أنني قد دفعت لها رسوم الرحلة التي تنظمها الجامعة إلى إيطاليا وفرنسا في إجازة نصف العام. استغربت كثيرًا من ذلك، وأخبرتني أن أبيها لم يكن ليسمح لها برحلات المدرسة وقد كانت يومًا واحدًا وبنات فقط، فكيف بهذه الرحلة؟؟

ضحكت وقلت: "ولكنك اليوم مسؤولة مني وليس من أبيك مع احترامي له، كما أنك لن تكوني وحدك، بل سنكون معًا"

ابتسمت وقالت: "هكذا إذن"، فغمزت لها وقلت: "استعدي لمغامرة جديدة".

*****

والتقينا

بالطبع لم تشترك أسماء صديقتي في هذه الرحلة، فقد نشأنا على أنه لا يجوز شرعًا للمرأة السفر دون محرم، ولم يفوتها بالطبع أن تنظر لي بغيظ قائلة "أغبطك على ذلك" ثم ضحكنا وافترقنا على وعد أن أرسل لها الصور وأروي لها كل تفاصيل الرحلة بعد رجوعي.

كان "علي" ضمن قائمة المشرفين على الرحلة، لذا فلم نكن معًا في غرفة واحدة. كان علي مع زميل له في غرفة وكنت مع زميلة تعرفت عليها بعد وصولنا، فلم يكن في الرحلة أي زميلة أو صديقة لي، كوننا لنا نفس الفكر. وللمصادفة كانت تلك الزميلة طالبة في كلية طب أسنان في البكالوريوس. وجدتها لا ترفع عينيها عن "علي"، وسمعتها تتحدث مع زميلة أخرى لها على الهاتف، أنها ما ذهبت إلى هذه الرحلة إلا بعد علمها بسفره.

بالطبع لم أخبر "سارة" أنني زوجة "علي"، لم أخبر أحدًا من الأساس. لم أكن وسارة على وفاق، فقد كانت كل منا على النقيض من الأخرى، فلا حدود لديها في التعامل مع زملاء الرحلة، وكانت تقضي معظم وقتها في مجموعات مختلطة، وعندما مر عليها أحد زملائها يومًا في غرفتنا لاصطحابها في رحلة مع المجموعة وكان على وشك الدخول، نهرتها وأخبرتها أن تقابله في الخارج، وأن ذلك لا يصح، وبالطبع اتهمتني بالتخلف والرجعية.

أما أنا فقد قضيت أجمل أيام حياتي مع "علي"، كنا نقضي جل اليوم معًا في الخارج، ونفترق فقط على النوم. معظم من كان في الرحلة من الطلبة كانوا مجموعات مختلطة من الأصدقاء. رأيت مفاهيمًا مغلوطة كثيرًا عكس ما تربيت. علمت وقتها سبب خوف أبي الشديد علينا من الفتن. تخيلت نفسي أتعرض لتلك الفتن وأنا غير متزوجة، لم أستطع أن أصدر حكمًا عليهم، ليس الأمر بتلك السهولة التي قد يتخيلها البعض. لولا وجود علي في حياتي، لولا كلمات الغزل التي يشبعني بها، واهتمامه ولمساته وهمساته، هل كنت سأصمد وأنا أرى كل ذلك يحدث من حولي؟

صحيح أنني كنت حبيبة أبي طوال عمري ولم يقصر معي يومًا، ولكن هل حب الأب مثل حب الزوج؟ صحيح أن حب الأب ورعايته هو من يصون الفتاة ويقيها الفتن حتى الزواج، ولكن الفتن في زماننا أصبحت شديدة، ومصيبتها أن ينظر الناس إليها كوضع طبيعي ومن يتجنبها هو الرجعي.

أفقت من شرودي على صوت "علي" يسألني: "من ذا الذي تجرأ وشغلك عني؟"

ابتسمت وقلت: "وهل أهرب منك إلا إليك؟"

تريدين الهروب إذن.

وجدتني أقولها بكل ما تجيش به نفسي: "أحبك ولا حياة لي بدونك".

أنار وجه علي بطريقة لم أرها منذ أن عرفته. هل يمكن لكلمات أن تفعل ذلك حقًا؟ قلتها له قبلًا، ولكن أنا نفسي لم أستشعرها مثل اليوم.

كنا جلوس وقتها في أحد المنتزهات فوجدت عليًا يحتضنني ويضمني إليه، لم أقاوم رغم خجلي أن يحدث ذلك في مكان عام. كنت في حاجة لذلك كما هو في حاجة إليه.

أفلتني وقال ضاحكًا: "هذه إحدى محاسن الحياة في الخارج، فلن نجد شرطة الآداب فوق رؤوسنا".

ضحكنا كما لم نضحك قبلًا، ثم ذهبنا إلى أحد المراكز التجارية واشترينا الكثير من الأشياء. وأثناء سيرنا لاحظت أن "عليًا" ينظر مليًا إلى أحد محلات الملابس النسائية، تتبعت نظرته فوجدته يحدق في قطعة ما، نظرت إليه وقد علمت أن الوقت قد حان، ولا يجب أن أتأخر أكثر من ذلك.

استأذنني علي للذهاب للحمام، فتوجهت إلى ذاك المتجر واشتريت تلك القطعة وبعض الأشياء الأخرى، وقد اتخذت قراري.

*****

بعد وصولنا للفندق، أخبرني "علي" بأنه سوف يذهب مع زميله لمقابلة زميل آخر لهم يعمل في إحدى الجامعات هنا، فحمدت الله أن يسر لي الوقت الذي أحتاجه. ذهبت إلى استقبال الفندق وطلبت من موظف الاستقبال أن يرسل لي مصففة للشعر في غرفتي.

أصبحت على أهبة الاستعداد، لم تكن سارة قد حضرت بعد، فجلست أفكر في الخطوة التالية.

اتصل بي "علي" بعد عودته، وأخبرني أن زميله في الغرفة سيقضي اليوم مع زميلهم الآخر وسيبيت ليلته معه لأنهما سيذهبان لمدينة أخرى.

أخبرني أنه سيرتاح قليلًا ثم يتصل بي لنخرج معًا.

ابتسمت وحمدت الله في سري على ذلك، ارتديت إسدالي وخرجت من الغرفة، اقتربت من غرفته. قابلت أحد "موظفي الغرف وطلبت منه أن يفتح لي الغرفة بالمفتاح الرئيسي كوني نسيت مفتاحي بالداخل، ففعل".

كان علي في الحمام، خلعت إسدالي واستعددت للقائه.

فوجئ بي عند خروجه، وتسمر واقفًا في مكانه.

اقتربت واقترب، نظر إلى ما أرتديه وقبل أن يتحدث وضعت يدي على فمه وقلت "هو نفسه"

طوقت عنقه بذراعي وهمست له قائلة: "هلا حملتني للداخل."

خارت قواه وانهارت حصوني، كنت له أرضًا فكان لي سماءً، لم أقاوم ولم يستطع المقاومة. وذاب كل منا في الآخر وقد علم أنه سكنه ومسكنه. احترمني وصبر فنال ما أراد كيفما أراد، عشقته فوهبته نفسي وملكته إياها ليرفع رايته عليها وتكون له دون غيره، وما أجمل أن يكون ذلك كله في رضا الله.

وفتحت عيناي في الصباح لأجده بجواري ينظر لي مبتسمًا. كانت تلك هي المرة الأولى التي ننام في غرفة واحدة، فقد كنا ننام في غرفتين منفصلتين في بيتنا.

ابتسمت حياء، فبادلني الابتسام قائلًا:

هل عندك شكٌ أنك أحلى امرأةٍ في الدنيا؟

وأهم امرأةٍ في الدنيا؟

هل عندك شك أني حين عثرت عليك ملكت مفاتيح الدنيا؟

هل عندك شك أني حين لمست يديك تغير تكوين الدنيا؟

هل عندك شك أن دخولك في قلبي هو أعظم يومٍ في التاريخ وأجمل خبرٍ في الدنيا؟

هل عندك شكٌ أنك جزءٌ من ذاتي وبأني من عينيك سرقت النار وقمت بأخطر ثوراتي؟

أيتها الوردة والياقوتة والريحانة والسلطانة والشعبية والشرعية بين جميع الملكات.

هل عندك شكٌ أني فيك وأنك في ؟؟

يا ناراً تجتاح كياني، يا ثمراً يملأ أغصاني،

قولي لي: كيف سأنقذ نفسي من أمواج الطوفان

قولي لي: ماذا أفعل فيك؟ أنا في حالة إدمان

قولي لي ما الحل؟ فأشواقي وصلت لحدود الهذيان[1]

*****

[1] نزار قباني

عدنا بعد أن قضينا أجمل لحظاتنا معًا، عدنا وقد انعكس ما حدث على وجه كل منا، حتى اعتدنا سماع عبارة "عدتما بوجه غير الذي سافرتما به". كنا نضحك كثيرا لتلك العبارة، وخصوصًا عندما يجيب "علي":

-"نعم بالفعل فلقد تزوجت هناك من فرجينيا جميلة الجميلات".

وبعد عودتنا للجامعة في الفصل الدراسي الثاني، فوجئت باستدعاء لي من إدارة الكلية تخبرني فيها بالتوجه لإدارة الجامعة لخضوعي لمجلس تأديب.

حاولت الاتصال ب "علي" ولكن هاتفه كان مغلقًا فذهبت، وللعجب قابلته هناك، وتعجب لدى رؤيتي فأخبرته بما كان، ليخبرني أيضًا أنه محال للتأديب.

دخلنا معًا، فما كان من المحقق إلا أن نظر لنا ساخرًا عند دخولنا قائلًا: "فهي ليست إشاعات إذن"

وعندما استوضح منه علي الأمر، أخبره أن إحدى الطالبات قد قدمت بلاغًا لإدارة الجامعة تتهمنا فيها بالقيام بأعمال منافية للآداب أثناء الرحلة، وأنني قد مكثت معه ليلة كاملة في غرفته، وأن هناك بعض الصور التي التقطت لنا معًا في أحد المنتزهات، وصورة أخرى وأنا أخرج من غرفته صباحًا.

نظر له عليٌ في دهشة قائلًا: "وبأي حق يلتقط لنا أحدهم صورًا؟"

أما أنا فقد ألجم الحديث لساني. لم أتوقع أن أكون محل مثل هذه الاتهامات أبدًا.

رد المحقق بصرامة: "أهذا ما يهمك يا دكتور؟ هل غررت بطالبة صغيرة وفي المقابل تندهش من الصور؟ الأولى أن تشعر بالخزي مما فعلت".

وقف علي وقد استشاط غضبًا قائلًا: "إياك أن تسيء إلى زوجتي أو تطعن فيها بكلمة".

كانت الدهشة هذه المرة من نصيب المحقق الذي فغر فاه قائلًا: "هل وصل الأمر للزواج العرفي؟"

هم علي أن يمسك بتلابيبه ولكنني استفقت من الحالة التي كنت فيها وحلت بينهما قائلة: "أي زواج عرفي تقصد يا سيدي، إن زواجنا رسمي منذ نهاية العام الدراسي السابق".

وتوجهت لزوجي بالحديث ليهدأ لنحل الأمر بهدوء.

أخرجت بطاقتي للمحقق فوجد فيها اسم علي وطابق بياناته مع بيانات بطاقتي، وبعد أن هدأت حدة الغضب، اعتذر المحقق، وأخبرنا أنه كان يؤدي واجبه. وأرسل في استدعاء الطالبة مقدمة البلاغ ليعنفها على فعلها ورمي الناس بالباطل دون التأكد. وبالطبع كانت تلك الفتاة هي سارة زميلتي التي اتهمتني بالرجعية والتخلف.

لن أنسى أبدًا نظرة الكره التي رأيتها في عينيها، لكني لم أكن ضعيفة يومًا فواجهتها قائلة: "كل إناء ينضح بما فيه، وكل يرى الناس بعين طبعه. لو كنت سألتني لوفرت على نفسك الكثير من العناء والتطفل على حياة الآخرين".

عدت لكليتي، وعاد علي لعمله، وبعد عودتنا للبيت كان كل منا واجمًا مما حدث لنا اليوم. ذكرت عليًا بموقف الرسول وزوجه السيدة صفية، وأنه كان من واجبنا توخي الحذر، لكنه حاول تجاوز الموقف وقال لي ضاحكًا مقلدًا أحد مشاهد الأفلام، كنت أريد أن أقول له: "أنا ماشي مع واحدة كلام في سرك تبقى مراتي"

فلم أتمالك نفسي من الضحك.

*****

سلمـى

مرت السنة الأولى من زواجنا كحلم جميل عشناه معًا، وتوجت بنتيجة العام الدراسي الثاني الذي كنت فيه الأولى على دفعتي، وهو ما اعتبره علي نجاحًا له كذلك.

وسألني علي وقتها عن أسماء، وقال لي أن حازم يبحث عن زوجة مناسبة، فلما لا نقرب بينهما، بالطبع كان هذا أجمل خبر سمعته في حياتي، فحازم وعلي أصدقاء من الصغر وكذلك أنا وأسماء، مما يعني توطيد علاقتي بها. لكم تمنيت أن يخطبها أخي الأكبر، ولكنه اختار زميلة له واقترب موعد زفافهما.

أخبرته أن والد أسماء لن يقبل بزواجها أثناء الدراسة، فإما أن يحاول حازم إقناعه أو يخطبها حتى تنتهي من دراستها.

وقد كان، فقد وافق والدها على الخطبة على أن يكون الزواج في آخر عام دراسي لها، وكان يوم خطبتهما يومًا مبهجًا للجميع.

أما عن علاقتي بأهل علي وعلاقته بأهلي فقد كانت أحسن ما تكون، ورغم فارق العمر بيني وبين سلمى إلا أن علاقة صداقة ربطتنا معًا وخصوصًا أنها كانت قريبة جدًا لقلب علي.

وفي أحد الأيام كنا مجتمعين عند حماي، ولم يكن "مصطفى" زوج سلمى موجودًا، وعندما تأخر الوقت وأخبرها علي أن تستعد ليوصلها لبيتها، أخبرته بهدوء أنها لن تعود.

وبعد فترة من الصمت، سألها والدها بحذر عما تعنيه، فألقت القنبلة وأخبرته أنها تريد الطلاق.

ثارت والدتها عليها، فأشار لها والدها بالهدوء ليستوضح الأمر من ابنته، فلقد كانت حياتها مستقرة ولم يكن فيها ما يكدر صفوها. ولكنها صمتت تمامًا وكأنها قد خاضت حربًا ضروسًا لتتمكن من اتخاذ هذا القرار.

سألها علي: "هل تحدثت مع زوجك بخصوص هذا الأمر؟ هل اتفقتما على شيء؟"

لترد عليه أن لا، وأنها فقط أخبرته أنها ستمكث هنا الليلة.

وبعد الكثير من المناقشات لم تنطق فيها سلمى بما يعيب زوجها، ولكنها أصرت على موقفها، فطلب علي من والده أن يتركها تهدأ، وأخبره أنه سيتصل بزوجها ليعرف منه ما حدث.

صعدنا إلى بيتنا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها عليًا في مثل هذه الحال. لم يذق النوم حرفيًا في هذه الليلة. وفي الصباح كان أول ما فعل أن اتصل بمصطفى زوج سلمى وأخبره أنه سيمر عليه في البيت الآن. بالطبع تفاجأ مصطفى بما قاله له "علي" أن سلمى تطلب الطلاق، وأقسم له أنه لم يحدث بينهما أي خلاف وأن حياتهما مستقرة، وهرع معه لبيت حماي ليقابل زوجته ويسألها عما في الأمر، ولم تزد سلمى على جملة واحدة "إنِّي ما أعيبُ عليهِ في خُلُقٍ ولا دينٍ، ولَكِنِّي أكْرَهُ الكُفرَ في الإسلامِ"[1].

---

[1] قالتها امرأة ثابت بن قيس لرسول الله عندما رغبت في الخلع.

ألجم قولها الألسنة، لم ينطق أحد بعدها. وانصرف زوجها دون حديث. ورغم أن سلمى كانت ثابتة على موقفها ولم تتفوه بحرف واحد، إلا أنني كنت أرى الألم في عينها. أيقنت أن هناك مأساة كبيرة وراء هذا الثبات.

وبعد مرور أسبوعين لم يكن هناك أي تغير في موقف سلمى، أما زوجها ففي البداية ثار وهاج وماج ثم ما لبث أن صمت وكأنه لم يعد لديه ما يقول.

استأذنت حماي أن تمضي سلمى اليوم معي، فوافق، كنت أرغب أن أتحدث معها بعيدًا عن الطفلين وعن والدها ووالدتها.

وبعد وصولنا البيت بوقت قليل، حضر علي، وانضم إلينا في الحديث، أردت أن أترك لهما حرية الحديث، فاستأذنت للانصراف، ولكن سلمى طلبت مني المكوث.

وبعد مناقشات طويلة، ثار عليها علي، وطلب منها أن تعطيه سببًا واحدًا لطلاقها ولا تتركه لوساوس ومخاوف تفتك به وبزوجها تجاهها.

لم يخف مقصده على أي منا، فشحب وجهها صارخة فيه هل تشك في يا علي وفي أخلاقي؟

إذا كنت أنت تظن في السوء فكيف بغيرك؟ كيف بمصطفى وفاطمة؟ كيف بالعالم كله؟؟ كيف أمكنك أن تتهمني في عرضي وأخلاقي؟

وانهارت باكية، فما كان من علي إلا أن قبل رأسها وتركنا وخرج.

لكن هيهات، فقد فُتِح الجرح وأصبح واجبًا تنظيفه كي يندمل.

حدثتني سلمى قائلة وهي تبكي بكاءً مريرًا: "لن يفهمني أي شخص ممن حولي يا فاطمة، أنا متأكدة من ذلك. ولكني لم أظن أن يصل الأمر أن يشك بي أخي. لم أعد أتحمل يا فاطمة صدقيني حاولت. طوال سنوات تسع حاولت التأقلم قدر استطاعتي ولم أقدر. مصطفى شخص ممتاز ولا أعيب عليه خلقًا ولا دينًا، ولكننا لا نناسب بعضنا. أنا أرى فشلي في وجهه يا فاطمة، أرى نقصي في عينيه. لن أنكر أنه لا يبخل علي ولا على أولادنا بشيء، ولا يرد لنا طلبًا، ولكنه بخيل علينا بنفسه. لم أشعر يومًا بحبه ولا بكرهه، فقط أشعر برغبته في.

عينه لا تقع إلا على ما ينقصني، فقد أكون متزينة وفي انتظاره، وبمجرد أن يراني يقول لي "ربما لو كان للخاتم نفس لون السوار لكان أفضل، فإذا جهزت له وجبة يحبها وتعبت فيها، فبمجرد جلوسه للطعام، يقول أين السلطة، أنا أعلم أنه لا يقصد الإهانة ولا يرغب في مضايقتي، ولكنني لم أعد أحتمل، يومًا وراء يوم أفقد الثقة في نفسي. أتدرين يا فاطمة لم أعد أطيق أن يلمسني، أصبحت أعطيه حقه خوفًا من الله فقط وإرضاءً له. لم أشعر يومًا بشعوره بالرضا، دائمًا أرى في عينيه نقصًا في. أنا في حاجة لأسمع كلمة غزل دون أن يتبعها علاقة، في حاجة للمسة مشاعر لا لمسة شهوة. لن أقول لك أنني زوجة مثالية وأنني لا أقصر في شيء، بالعكس لدي الكثير من التقصير، ولكني أشعر أنني وردة ذابلة تحتاج من يرويها؛ يرويها بمشاعره لا بشهوته ورغبته. هل تعلمين لما زاد وزني مؤخرًا؟ أصبحت أتعمد فعل ذلك لأنه لا ينفك يتحدث عن الرشيقات الجميلات من

الفنانات والزميلات، لم أكن يوما سمينة ولكنه ما مدح رشاقتي يومًا، أما الآن فكلما رآني حدثني عن زيادة وزني. هو يراني أمًا وربة منزل فقط لا زوجة وحبيبة. أنا أذهب بالأولاد للتمارين وحدي، ليس لأنه مشغول بعمله، ولكن لأنه لا طاقة له للذهاب والانتظار. وعندما طلبت منه أن يأتي معي، سألني وماذا أفعل لحين انتهاء التمرين، قلت له انظر في عيناي وتغزل فيهما، لم أكن أمزح يا فاطمة، كنت أتحدث بما أريد حقًا ولكنه ظنني مازحة، فضحك ولم يأت. حتى اعتدت الأمر. حفلات واجتماعات المدرسة أذهب فيها وحدي حتى ظن الجميع أنه مسافر أو أننا منفصلان، ولا يكون مشغولًا بعمل وقتها، لكنه يفضل الجلوس مع أصدقائه على التواجد معنا. لو انتبهتِ إلى المناسبات العائلية، تجدينني وحدي دائمًا، فإن كانت دعوة للغداء مثلا، فيأتي سريعا ثم يتركنا ويعود لنا بعد أن ينهي سهرته مع أصدقائه على المقهى. علمني الاعتماد على نفسي في كل شيء يا فاطمة حتى أصبحت في غنى عنه. فرق كبير بين أن يعود الزوج زوجته أن تعتمد على نفسها وبين أن يعودها أن تستغنى عنه. دفعني للاستغناء فاستغنيت.

أعلم أن قرار الطلاق ليس سهلًا، وقد فكرت فيه مرارًا وتكرارًا، تدربت على موقف وقوفي أمام أبي وإعلاني رغبتي في الطلاق مرات عديدة، حتى تمكنت من قولها ذاك اليوم."

انتهت سلمى من حديثها، وشعرت أنها قد ألقت من فوق ظهرها حمولًا ثقيلة. لم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة ولكني احتضنتها وظللت أربت على كتفها. مرت دقائق، فتح خلالها علي الباب وأخبرني أن أرتدي

خماري لأن مصطفى معه.

لحظات مرت توقفت فيها أنفاسنا ونظرت لي سلمى وكأنها تسألني هل استمعا لما قلت؟؟

والحقيقة أنني لم أكن أدري ولكن من الواضح أنه كذلك بالفعل.

دخل علي ومصطفى بعد أن ارتديت خماري، وبالطبع كانت نظرات مصطفى لزوجته توحي بألف اعتذار. أشار لي علي لنتركهما يتحدثان، ولكن مصطفى طلب من علي أن نمكث. جلس بجوار زوجته وهو خافض وجهه وقال: "أنا آسف، لم أنتبه لكل ذلك قبلًا، ولكن أقسم لك أنني أحبك، ولا أستطيع الحياة بدونك. طوال الأيام التي تركتني فيهما عرفت قدرك في حياتي. أنا لا أجيد التعبير عما بداخلي، ولكنني كنت أظنك قادرة على التعايش مع هذا الطبع، لم أفهمك جيدًا، لم أسع لذلك من الأساس. سامحيني. لن أجبرك على التراجع عن قرارك، كل ما تريدينه سيحدث، لكن رجاء امنحيني الفرصة لإصلاح الأمر".

قال ذلك ثم استأذن وانصرف مسرعًا دون أن ينتظر ردًا.

تحجر الدمع في عيني سلمى، نظرت لعلي فأخبرها أنه بمجرد أن أغلق الباب بعد خروجه وجد مصطفى صاعدًا وعلم منه أن والدته أخبرته بوجودك لدينا فصعد، وعندما هممت بفتح الباب بدأتِ في حديثك فسمعنا كل ما دار بينكما. سألها عن قرارها فقالت: "لم أتراجع عن قراري يا أخي".

نظر لي علي يسألني ماذا يفعل، وقد كنت في حيرة أكثر منه. أطرقت بوجهي أرضًا وصمت.

تركتنا سلمى ونزلت للحديقة، أخبرتنا أنها تريد الجلوس وحدها في مكان مفتوح.

شعر علي بالحنق على أخته لإصرارها على الطلاق، فوجدت نفسي أسأله: "ألا ترى أن معها الحق فيما طلبت بعد ما سمعته؟"

"الطلاق ليس سهلًا يا فاطمة، وهو أبغض الحلال".

"لا يا علي، انتبه ليس هناك حلال بغيض، الحلال كله محمود، ولو كان بغيضًا ما شرعه الله. هل تذكر حديثك معي ليلة زواجنا؟ هل تذكر عندما قلت لي أننا صعبنا الحلال ويسرنا الحرام؟ أليس هذا ما تفعله مع أختك الآن؟ في الحقيقة لقد أوجعتني كل كلمة نطقت بها سلمى، ووجدت نفسي أقارنك به، فوجدت أنه لا يوجد وجه للمقارنة بينكما من الأساس".

"لا يا فاطمة، مصطفى ليس بهذا السوء أنا أعرفه جيدًا".

"لم أقل ذلك يا علي، ولم تقل أختك ذلك أيضًا، كل ما في الأمر أنهما بهذه الصورة لا يمكنهما الاستمرار، فأختك مفعمة المشاعر وزوجها إنسان عملي للغاية".

"الأمر ليس كذلك، هل تذكرين ما قرأناه مرة عن الفرق بين طبيعة الرجل والمرأة فيما يخص العلاقة الزوجية؟ الرجل يرى أن هذه هي طريقة التعبير عن المشاعر".

"ولكننا قرأنا كذلك أن المرأة تحتاج للعاطفة لتفعل ذلك، لذا لابد من أن تكون هناك أرضية مشتركة بينهما للتعايش وهو المفقود بين أختك وزوجها".

"رأيت صدقًا في حديثه معها، أنا متأكد أن سلمى نفسها رأت ذلك وهو ما سبب لها تلك الصدمة والحيرة".

هل لي باقتراح؟ أنا أرى أن الانفصال بينهما هو الحل الأفضل في الوقت الحالي، ولكن ليكن انفصالًا وليس طلاقًا لفترة ما، ثلاثة أشهر مثلًا. يحاول فيها مصطفى استمالة قلبها له، وتزن فيها سلمى حياتها بدونه، وبعد ذلك نرى، هل سيستطيع مصطفى التغير لأجلها، وهل ستستطيع هي التأقلم مع الحياة بدونه؟

عقد علي ما بين حاجبيه مفكرًا وقال: "يبدو منطقيًا، ولكن لا أدري هل ستوافق سلمى أم لا".

اترك لي موافقة سلمى، عليك إقناع مصطفى أولًا.

وكيف ستقنعينها بذلك؟

ابتسمت قائلة: "سأخبرها كم هي جميلة الخطوبة بعد الزواج"

فابتسم، و..... ونسينا سلمى.

*****

اشترطت سلمى لموافقتها على هذا الاقتراح أن يكون التعامل بينها وبين مصطفى كالغرباء تمامًا، وبالنسبة للطفلين يمكنه رؤيتهما متى أراد واصطحابهما وقتما يشاء. فرغم ما في قلبها من ألم إلا أنها لم تسئ الظن به وأثنت على رجولته وحمايته لها ولأولاده، وقالت إنها تعلم أنه لن يستغلهما للضغط عليها أبدًا.

ووافق مصطفى على الاقتراح لأنه كان طوقًا للنجاة بالنسبة إليه، يعطيه أملًا أنه لن يفقدها. ولم يبخل عليه علي بالنصح، علمه كيف يعزف على أوتار قلب زوجته، تمامًا كما اعتاد العزف على أوتار قلبي.

قليل من الاهتمام يزهر أزهارًا فقدت نضارتها وذبلت. قليل من الحب يروي أرضًا عطشى فتقوى وتنبت.

لو يعلم كل زوج أن كلماته هي الماء الذي يحي قلب زوجته، لو يعلم أن لمسة حانية وحضن دافئ هو الملاذ الذي تبحث عنه، ما حرمها ولا حرم نفسه منه.

ازدهر وجه سلمى بعد انطفائه، وفهم مصطفى ما لم يفهمه قبلًا عن زوجته وأبنائه. رآها كما لم يرها قبلًا، أحبها وقد كان قبلًا يشتهيها، تمامًا كما شعرت هي.

سألتني سلمى يومًا: "كيف أحببت عليًا رغم عدم معرفتي به قبل الزواج، ورغم سخافة فترة خطبتنا التي لم أكن أرى فيها عليًا إلا نادرًا؟ ولولا أنها تعرف أخيها جيدًا لحدثتني لإنهائها".

تنهدت وقلت: "بل كانت أجمل فترة خطوبة يمكن أن تتخيليها في حياتك".

نظرت لي غير مصدقة لما أقول، كأنها تريد أن تنعتني بالجنون.

مسكينة هي، لا يمكنني لومها، فكيف لها أن تعلم؟!

وهل يدوم؟

انتهيت من السنة الرابعة في دراستي، لم يبق إلا عام واحد وأنهيها، وأنهى علي الماجستير وبدأ في الدكتوراه. لم ننجب حتى الآن رغم تأكد كل منا من حبه للآخر وأنه خياره في الحياة. لم يكن هذا الأمر يشغل عليًا كثيرًا، لم يكن يفكر فيه من الأساس، كان يعتقد أن مسؤوليات الإنجاب ستبعدنا عن بعضنا وستقيد حركتنا وسفرنا.

تحدثت معه أنه بما أنني شارفت على الانتهاء من الدراسة، فلما لا نخطط لذلك، لكنه آثر أن يكون ذلك بعد التخرج.

وانشغلت بعد ذلك مع أسماء في استعدادها للزواج وانشغل هو كذلك مع حازم.

ومع بداية العام الدراسي الجديد بدأت أستشعر تغيرًا في شخصية علي، لا يمكنني التكهن بكينونة التغيير، فقط شعور ينتابني كلما نظرت إليه. تحدثت معه بما يدور في بالي، فنحن أصدقاء قبل أن نكون زوجين، لكنه سخر مني ومن تفكيري.

وجدتني أقول له: "لن أنسى يا علي جملةً قالها لي والدك قبل زواجنا، عندما أخبرته أنني عقلانية ولست عاطفية، وقتها قال لي المرأة مهما كانت عقلانية إلا أن بداخلها عاطفة جياشة تنتظر من يستثيرها، وصدق في قوله يا علي، فلقد حولتني من إنسانة عقلانية تمامًا إلى أخرى فياضة المشاعر. ولكن يا علي هذه المشاعر مرتبطة بك وحدك، ولك وحدك. أنا بدونك

أكون فاطمة العاقلة، وبك أكون فاطمة الرقيقة الحالمة. التحول من العقل للقلب سهل، ولكن التحول من القلب للعقل نار تحرق صاحبها أول ما تحرق".

نظر لي علي نظرة زادت من شكوكي، للمرة الأولى أرى في عينيه حيرة، ضممته ليسمع نبض قلبي عله يطمئن. ذكرته أننا صديقان وأن كلا منا ملجأ للآخر ينجيه من نفسه ومما يحذر ويخاف. ولكنه ابتسم وأخبرني أن اطمئن.

وللمرة الأولى منذ زواجنا أجد عليًا يطلق نظره أثناء سيرنا، بل ويستخدم لفظًا غير مناسب في وصف إحدى الفتيات.

هممت بتذكيره بغض البصر، ولكنني تراجعت، فلن يثنيه ذلك الآن، فلننتظر.

وبينما أتصفح هاتفي مرة ونحن جلوس معًا، تعمدت أن أطلق صفيرًا من بين شفتي وقلت بصوت مسموع "لكم هو وسيم!"

انتفض علي يأخذ هاتفي من بين يدي فوجده مغلقًا، نظر لي وقال: "عمن كنت تتحدثين؟"

في الحقيقة تفاجأت من ردة فعله، توقعت فقط أن يسألني دون يأخذ مني الهاتف، فالثقة هي أساس علاقتنا من البداية، تمالكت نفسي مع ذلك وقلت: "لا أحد".

بحدة قال: "ومن هو الوسيم الذي كنت تتحدثين عنه، ومنذ متى وأنت تطلقين بصرك وتنظرين إلى الرجال، ومنذ متى وأنت تطلقين صفيرًا

من بين شفتيك؟؟"

رددت بهدوء: "منذ أن فعلت أنت ذلك، دقة بدقة ولو زدنا لزاد السقا".

نظر لي وقد ألجمه حديثي. ذكرته بما فعل، فاستحى ولم يجد ما يقول وانسحب لغرفتنا.

وبعد قليل، ذهبت إليه واقتربت منه بدلال وقلت "أسدلت ستارك على عيني، فكيف بربك أرى سواك"[1]

نظر لي مستفسرًا فقلت: "هاتفي كان مغلقًا ولم أكن أنظر لغيرك، لكني أردتك أن تشعر بما شعرت به عندما أطلقت نظرك على غيري. عيناي لا ترى غيرك يا علي".

*****

[1] د. منى سلامة

أتى علي يومًا ليخبرني بما لم يخطر على بالي قط؛ لقد انتدب للعمل في جامعة الإسكندرية لثلاثة أيام أسبوعيًا. وهو ما يعني أنه سيضطر للإقامة في الإسكندرية من السبت إلى الإثنين، ويعود الثلاثاء للجامعة هنا.

أسقط في يدي، لم أدر ماذا سأفعل.

وبعد برهة قلت: "وهل سنؤجر مسكنًا هناك، أم ماذا سنفعل؟"

رد قائلًا: "نؤجر؟؟ سأذهب وحدي، كيف ستتركين دراستك لتأتين معي؟ على الأقل ستمكثين هنا هذا العام، والأمر كله ثلاثة أيام أسبوعيًا لا أكثر".

نظرت له مستنكرة وقلت: "وهل تظنني سأتركك وحدك، وهل ستتركني وحدي".

"لسنا صغارًا يا فاطمة، والأمر كله أيام بسيطة، انظري لحال صديقتك أسماء، تركها حازم وسافر لينهي رسالته في الخارج بعد زواجهما، ولم تعترض حتى تنهي دراستها، فلنحمد الله أنه يمكنني السفر والرجوع في سويعات قليلة. يمكنك كذلك أن تمكثي مع والديك أثناء سفري."

تمالكت دموعي وقلت: "كيف هان عليك أن تقول ذلك؟ لم أبت في بيت أبي ولو لمرة واحدة منذ زواجنا، فكيف طاوعتك نفسك لتقولها؟"

ضمني إليه وقال: "سامحيني، فقط أشعر بالتوتر فلم أعتد البعد عنك."

"ومتى ستسافر؟"

"يوم الجمعة القادم بإذن الله حتى أتمكن من ترتيب أموري قبل الذهاب للجامعة صباحًا".

*****

ويوم الجمعة جهزت له حقيبته ولم أنس أن أضع له كلمات رقيقة يقرأها عندما يصل.

استأذنته للذهاب لأسماء لأقضي اليوم معها وربما تجولنا قليلًا فوافق.

وقضيت يومًا جميلًا مع صديقتي الحبيبة. ضحكت وقالت: "ليت عليًا سافر من زمن حتى نستعيد الأيام الخوالي".

وبينما نحن جلوس ارتفع رنين هاتفي بعدة رسائل متتالية، بطريقة فجرت ضحكاتنا.

ظننتها رسائل من علي يبثني فيها شوقه إلي، فتحتها بلهفة فسقطت أرضًا وبجانبي هاتفي، وكان آخر ما سمعته صوت أسماء وهي تصرخ وتسندني أثناء سقوطي.

*****

لم أعتد الكذب، ولم أتخيل يومًا أن أكذب على فاطمة، لكنني لم أرد وقتها أن أجرحها. كما أنني حقًا لم ولن أحب سواها.

لكن سارة كانت مختلفة، أحاطتني فلم أستطع منها فكاكًا. زميلتي في الجامعة، كانت طالبتي وبعد ذلك أصبحت زميلة، أحاطتني ولم تترك لي فرصة للهروب من براثنها.

رفض أبي وقتها تلك الزيجة، وأخبرني أن هذه أكبر غلطة سأرتكبها في حياتي. سألني أبي عما قصرت فيه زوجتي لأبحث عن غيرها. لم أجب، ففي الحقيقة لم تقصر فاطمة في شيء، ولكني أشتهي سارة.

أخبرني أبي عن حديث "فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه"[1]، فأخبرته أنني فعلت ومع ذلك لم أتمكن من صرف تفكيري عنها. أخبرني أنه سأل عن عائلتها وما سمعه لا يبشر بخير، فلكل منا طباع وأفكار مختلفة تمامًا عن الآخر. الجميع يقول إنها عائلة متحررة، كما أن سارة لا تلتزم حتى بالاحتشام في لباسها، وتعجب من اختياري لها رغم كل ذلك. أخبرته أنه يمكنني تغييرها، وربما جعلني الله سببًا في هداها. نظر لي والدي بأسف، واسترجع وقد أسقط في يده.

لولا أن والد سارة أصر وقتها على حضور أهلي، لما أخبرت أحدًا، فلقد كنت أعلم كم يحبون فاطمة. رجوتهم ألا يخبروها وأن يتركوا لي اختيار

---

1 حديث شريف

الوقت المناسب لإخبارها، وفي الحقيقة لم أكن في حاجة لذلك، فكل منهم كان يرى أنها نزوة ولا داعي لجرحها بنزوة ستنتهي. ولكن وقتها لم أكن أراها نزوة. حدثت نفسي: "بالطبع سأخبرها لكن في الوقت المناسب".

وافق الجميع عدا سلمى التي رفضت حتى أن تحضر عقد القران، وعلى الرغم من رفضها إلا أنني كنت أعرف أنها لن تخبر فاطمة خوفًا على مشاعرها.

تفتق ذهني عن فكرة انتدابي لجامعة الإسكندرية، كي أتمكن من العدل بين فاطمة وسارة، وقد تم الأمر كما أردت والحمد لله.

ويوم زفافي على سارة، أخبرت فاطمة بسفري لثلاثة أيام، ولكني في الحقيقة أنني كنت سأتغيب أسبوعًا كاملاً أرتوي فيه من سارة.

انتابني شعور أنني أريد أن أجرب شيئًا جديدًا، امرأة أخرى بالتحديد. وبما أنني لا أفعل الحرام، قررت الزواج.

كان لسان حالي وقتها يقول: "ما أعظمك يا الله، تعلم شعور مخلوقك الضعيف، فوهبته ما يشبعه بالحلال. فلتبدأ المغامرة."

*****

أفقت على بكاء أسماء وهي تحاول إفاقتي حسبما تستطيع. أفقت ولكن عقلي كان مذهولًا، سابحًا في واد آخر.

احتضنتني أسماء وهي تبكي ففهمت أنها رأت ما رأيت، وأن ما رأيت كان حقيقة وليس خيالًا أتخيله.

ربت على كتفها وابتسمت، مسحت دموعها بينما أنا في حاجة لمن يوقف نزيف قلبي.

نظرت لي مذهولة من ابتسامتي، فقلت لها لماذا تبكين، أخفتي علي لهذه الدرجة، لا تقلقي صديقتك ليست بالأنثى الضعيفة، أما الإغماء فكان بسبب الحمل، يبدو أنك أرهقتني اليوم كثيرًا.

فغر فاه أسماء، ونظرت لي وقد ألجم كلامي لسانها.

نظرت إليها قائلة: "يبدو أنك ظننتِ أنني لم أكن أعلم بزواج علي، بل كنت أعلم ذلك، أنا وعلي صديقان قبل أن نكون زوجين، ولا يمكنه فعل ذلك دون موافقتي".

كانت تعلم أنني كاذبة، وكنت أعلم أنها تعلم، ولكني كنت في حاجة للملمة كبريائي المبعثر. ظنتني في حالة صدمة وإنكار، ولكن الحقيقة أن قلبي توقف تمامًا في هذه اللحظة، واحتل عقلي مكانه بكل قوته. لم أكن يومًا فتاة ساذجة عاطفية، ولكنني كنت قد أعطيت عقلي إجازة، وقد عاد من إجازته لتوه.

استأذنت أسماء للانصراف ولكنها أبت أن تتركني، وصحبتني رغمًا عني. ذهبت إلى الفندق المذكور في الرسالة لأرى زوجي وهو يصعد مع زوجته الجديدة إلى غرفتهما، كنت أريد أن أصمت قلبي للنهاية ولا أدع له فرصة للرجوع.

نهرتني أسماء وطلبت مني الذهاب لبيت أبي، ولكنني نظرت إليها متعجبةً وقلت: "لم استأذن زوجي للذهاب، سأعود لبيتي"

صرخت في لتخبرني أن أستفيق وأقسمت أن تتصل بأمي لتخبرها، لكنني صرخت فيها أنها لا يحق لها التدخل في حياتي بهذا الشكل، وأقسمت أنها لو فعلت ذلك فسيكون آخر يوم في علاقتي بها. لم تنطق لدقائق ثم قالت: "هذا فراق بيني وبينك".

وتركت السيارة ونزلت.

*****

استيقظت على تربيت رقيق على كتفي وقت الفجر، فتحت عيني فوجدت والد علي يوقظني برفق وأنا نائمة على الأرجوحة في الحديقة.

أسرتني نظرة حانية أراها في عينيه دائمًا وهو يقول: "ما بك يا ابنتي، لم تنامين هنا؟"

"بعد عودتي من عند أسماء جلست هنا يا عماه، ويبدو أن النوم غلبني، فلم أنتبه، معذرة لإزعاجك".

نظر لي بعتاب قائلًا: "وهل تزعج الابنة أبيها؟ لكن ما بال عينيك متورمتين؟"

اختنقت الدموع في حلقي وقلت: "لا شيء يا عماه، ولكني أفتقد عليًا كثيرًا، ولم أستطع الصعود للمنزل بدونه".

أنبأتني دموع ترقرقت في عينيه أنه يعرف الأمر.

ربت على كتفي وقال: "فاصعدي إلى بيتي، ونامي بجوار والدة علي".

"أشكرك يا عماه، ولكني سأصعد إلى بيتي، فلن أفقد بيتي وزوجي في يوم واحد".

تسمر في مكانه قائلًا: "ماذا تقصدين؟"

ابتسمت وقد تأكدت ظنوني وقلت: "لا شيء، فقط اشتقت لعلي كما أخبرتك".

ودخلت بيتي للمرة الأولى بقلب غير الذي غادرته به، دخلته وقد فقدت قلبي وزوجي وصديقتي.

*****

رن هاتفي في السادسة صباحًا، انتفضت من نومي وكذلك فعلت سارة، لأجدها فاطمة، أوشكت على الرد ولكن سارة سحبت مني الهاتف وأغلقته قائلة: "هذا يومي وليس يومها، ألم تخبرني أنك أخبرتها بزواجنا، فلم تتصل بك في مثل هذا الوقت، إلا لو كانت تريد تعكير صفو حياتنا معًا.

نظرت لها ساهمًا، ولكنها سرعان ما سحبتني لعالمها.

وبعد أسبوع عدت لفاطمة وقد كان شوقي لها فوق الوصف، لم نتحدث خلال هذا الأسبوع سوى لدقائق محدودة كنت أختلسها عندما لا تكون سارة بجانبي، ولعجبي لم تتضايق فاطمة عندما أخبرتها بأنني سأعود يوم الخميس. لم تكن سارة تريد أن تتركني، ولكنني أخبرتها أننا سنتقابل في الجامعة يوم السبت ونعود معًا لبيتنا للمرة الأولى لندخله معًا. أخبرتها أننا قد تعودنا على التجمع في بيت أبي يوم الجمعة ولذا يجب أن أكون موجودًا، ثم نظرت لها قائلًا: "هل ترغبين في الحضور؟"

وعلى الرغم من أنني ما قلت ذلك إلا كي لا تشك أنني لم أخبر فاطمة بعد، إلا أن ردها صدمني عندما قالت: "ما لي والذهاب من بيت لبيت، اصطحب الأخرى معك فهي التي ترغب بالبيوت، أما أنا فواجهتك المشرفة أمام العالم".

نظرت لها بصرامة وقد آلمني حديثها عن فاطمة وقلت: "وهل تظنين أن فاطمة لم تكن واجهة مشرفة لي، وأنني لهذا تزوجتك؟؟ وجود فاطمة في حياة أي شخص هو شرف له، ولا أسمح لأي من كان أن يتحدث عنها بسوء".

ردت بسخرية: "آه، بالطبع، فاذهب لليدي فاطمة. بالمناسبة سأمكث في بيت أبي حتى يوم السبت، فلم أعتد المكوث وحدي."

كتمت غيظي وتركتها وذهبت.

*****

اتصلت بفاطمة وأنا في طريقي للبيت، وأخبرتها أن تستعد لنخرج معًا بعد حضوري، فرغم شوقي لها إلا أنني لم أرد أن أظلمها، وأنا أعلم أنها لم تخرج من البيت طوال الأسبوع، أخبرني أبي أنها حتى لم تذهب لكليتها، لكنها أخبرتني أنها لا تريد أن تخرج، بل تريد أن تستمتع بقربي اليوم قبل أن أتركها غدًا لأعود للإسكندرية.

لست أدري لما أوجعتني كلماتها. هل كان الأمر يستحق حقًا؟ لا أدري.

مررت على أبي وأمي قبل صعودي، كنت أريد أن أطمئن منهما أن الأمور بخير. أخبرني أبي عما حدث يوم زواجي وكيف وجد فاطمة نائمة في الحديقة، فزاد من إحساسي بالذنب، ولم يخف ذلك على أبي الذي قال: "أرجو أن تكون قد وجدت الأمر يستحق".

واستقبلتني زوجتي الحبيبة استقبالًا يليق بها لا بي. وسكنت إليها، ولكن حضن فاطمة كان مختلفًا تلك المرة لم يكن دافئًا كما كان دائمًا، ورغم شوقي لها وشوقها الذي تحاول أن تسبغه علي، إلا أنني افتقدت شيئًا ما لم أستطع تحديده.

رفعت وجهها إلي وسألتها عما بها، فألقت في وجهي بالمفاجأة التي ألجمتني وسمرتني في مكاني.

*****

"قريبًا نستقبل عضوًا جديدًا في أسرتنا، فهل تريد فتى أم فتاة؟"

كانت تلك هي القنبلة التي ألقتها فاطمة في وجهي.

وبعد فترة من الصمت المطبق، سألتها بحذر: "ماذا تقصدين؟"

ضحكت وقالت: "ألم تفهم بعد يا زوجي الحبيب؟ لقد شاء الله أن يزيد ارتباطنا بطفل".

نظرت لها غير مصدق لما قالت، دارت بي الدنيا ولم أدر ما أقول، لماذا الآن يا رب؟ لماذا الآن؟

نظرت لها وقلت: "ولكن لم يكن ذلك اتفاقنا".

نظرت لي مصدومة وقالت: "اتفاقنا؟" ثم استدركت: "قد يكون ذلك صحيحًا ولكن شاء الله أن يهبنا ذرية من لدنه، فهل يكون ذلك حمدك على هبته؟؟ أتدري، لقد ظللت طوال الأسبوع الذي غبت عني فيه أفكر في الطريقة التي سأخبرك بها، وتخيلت فرحتك، تخيلتك تحادثني، وتقول "هل سنسمي الحسن والحسين أم سنسمي زينب؟!" ولكن يبدو أنني نسيت أنه منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه بيتك أخبرتني أنك معجب بالتجربة الغربية في العلاقات، وتريد تطبيقها في إطار شرعي، وها أنت الآن تصدم بحملي وتخبرني أننا لم نتفق على ذلك، تمامًا كما يفعل المراهقون هناك، ولن أستبعد أن تطلب مني إجهاض جنيني".

صدمتني فاطمة بما قالت، كيف أمكنني أن أتفوه بذلك حقًا، كيف أمكنني أن أكسر فرحتها؟؟ لماذا شعرت بالصدمة ولم أشعر بالفرحة؟؟

تركتني فاطمة ودخلت غرفتنا، وجلست ممسكًا برأسي.

وبعد ساعة قمت إليها، فوجدتها تجلس باكية، قبلت رأسها واعتذرت لها. أخبرتها أنني فقط أردت ألا يشغلها شاغل عني، أردتها لي فقط ولم أرد أن يشاركني فيها أحد، حتى وإن كان ابني ومن دمي.

ألقت برأسها على صدري وقالت: "ولماذا قبلت أنا أن يشاركني فيك أحد ولم ترض أنت؟"

انتفضت وقلت: "ماذا تقصدين؟!"

قالت: "إذا وهبنا الله فتاة فستكون حبيبة أبيها، تمامًا كما أنا بالنسبة لأبي. ولن تقبل أن أرفع صوتي عليها، وستكون ضرة لي كما كانت أمي تنعتني دائمًا. أتعلم أن أبي لا يقبل أن يمسني أحد بسوء؟ ولولا أنه وجدك أمينًا علي ما زوجني إياك".

مزق ضميري كلام فاطمة، ولكني أسكته بأنني لم أسيء إليها أبدًا.

"هل أخبرت أحدًا بالحمل؟"

"لا، أردت أن تكون أول من يعلم ويشاركني فرحتي".

استكانت فاطمة بين ذراعي، ثم قالت لي فجأة: "هل تذهب معي غدًا لنجري تحليل الحمل؟"

استغربت وسألتها: "أولم تفعلي؟"

قالت: "نعم لم أفعل، أنا فقط شعرت ببعض الأعراض التي تدل على الحمل".

"أعراض؟؟؟"

ثم انتبهت لشيء آخر، فالتوقيت لا يوحي بأن هناك حمل من الأساس".

نظرت لي فاطمة نظرة غامضة، ثم انفجرت ضاحكة وقالت: "هل صدقت؟؟ يبدو أنني أصبحت بارعة في التمثيل".

التمثيل!!!!! صدقت؟؟؟ وهل كذبتك قبلًا؟ ومنذ متى وأنت تكذبين يا فاطمة؟؟

نظرت لي فاطمة نظرة طويلة، ثم قالت: "أكذب؟ أنا لا أكذب، وقد أخبرتك لتوي بالمزحة، ألسنا صديقين ولا يكذب أحدنا على الآخر البتة؟"

أربكتني نظراتها، تراها تعلم ما حدث أم ماذا، ألا يجب أن أخبرها الآن؟"

بعد صمت مطبق، تنهدت وقلت: "دعينا نخرج للتنزه قليلًا".

اقتربت مني هامسة وقالت: "سنخرج، لكنك ستترك لي نفسك اليوم كما تركت لك نفسي طيلة سنوات أربع".

لماذا أشعر بالخوف من فاطمة، ليست تلك فاطمة التي أعرفها، هناك شيء مختلف.

تفاجأت بفاطمة تتولى القيادة، وتطلب مني الاسترخاء تمامًا، والحقيقة أنني كنت في حاجة ماسة للنوم لدرجة أنني لم أشعر بمرور الوقت إلا وهي توقظني على أبواب المنتزه!!

فتحت عيناي وهي تهمس في أذني: "وصلنا يا علي".

نظرت لها غير مصدق للوقت ولا للمكان، هل نمت طيلة ثلاث ساعات؟ وهل قادت فاطمة ليلًا كل هذه المسافة رغم أنها تخشى الظلام؟

ابتسمت وقالت: "لم أعد أخشى شيئًا، لقد كبرت".

زادت دهشتي إذ علمت أن فاطمة قد حجزت نفس الغرفة في نفس الفندق الذي ذهبنا إليه يوم زواجنا. دخلنا إلى غرفتنا وسرعان ما قالت لي: "ألا ترغب في الجلوس على البحر الآن، هيا بنا".

نزلنا إلى الشاطئ الخاص بالفندق، لم يكن هناك سوانا، فالساعة قد قاربت الثالثة صباحًا، نظرت إلي وهمست: "لم أعد أخشى الظلام، ولكن ما زال البحر يرهبني ليلًا".

ثم استلقت على أحد الكراسي الممددة على الشاطئ تراقب النجوم، اقتربت منها وقد استعدت ذكرياتنا معًا فابتسمت واستلقيت بجانبها وأشرت إلى إحدى النجمات المتلألئة وقلت: "أنت تلك النجمة، أخبريني بربك ماذا يفعل المرء عندما يقع في حب نجمة متلألئة؟"

ألقت برأسها على صدري وقالت: "لعل النجمة تحبه هي الأخرى فتتنازل عن علوها وتهبط إلى الأرض لتبقى بجانبه، لكن نزولها من علوها إلى الأرض يطفأها وينيره، فلا يراها رغم كونها بجانبه. ولعله ينظر بعد ذلك إلى السماء فيجدها مليئة بالنجوم، فيجد من تفوقها نورًا وجمالًا، ولربما أطار عقله شعاع إحداهن وأحب القرب منها فالتمس لنفسه جناحين يطير بهما إليها ليدور في أفلاكها كأحد أقمارها لو كان للنجوم أقمار. ولم ينتبه أنه بصعوده سيظل يدور ويدور في فلكها ولن يصل إليها، وسينظر إلى نجمته الأولى بحسرة وقد أضاعها هي الأخرى.[1]

---

[1] منقول بتصرف

لم أنبس ببنت شفة بعد أن انتهت فاطمة من جوابها، بل وجدتني أَضمها إلي أكثر وأكثر وكأني أخشى أن أفقدها كما قالت.

لا لا، أنا لن أتخلى عنها أبدًا، فاطمة هي حب عمري، لكن ماذا عن سارة؟

وقبل أن أسترسل في أفكاري، أفقت من شرودي على صوت فاطمة تدعوني للصعود لصلاة الفجر، ثم النزول مرة أخرى لمشاهدة الشروق.

تردد نفس كلماتي التي رددتها على مسامعها أول يوم لنا معًا، أتراه ديجافو أم مجرد تشابه بين الأحداث لا يوحي بشيء؟

لما يتردد في ذهني أن البدايات تشبه النهايات؟ لا أدري.

شاهدنا أروع مشاهد الشروق ثم صعدنا لننعم بسويعات قليلة للنوم قبل أن ننهض لنقض يومًا مميزًا معًا.

وانتهى اليوم سريعًا ككل لحظة جميلة في حياتنا، تتسرب من بين أيدينا قبل أن نروي ظمئنا منها.

*****

استيقظت لصلاة الفجر، لم أجد فاطمة بجانبي، ظننتها تتوضأ للصلاة، ولما تأخرت قمت أبحث عنها فلم أجدها.

نظرت إلى الساعة فوجدت أن الفجر قد أذن من حوالي ساعة، ظننتها تنظر إلى البحر من الشرفة، فاغتسلت لأتمكن من إدراك الصلاة قبل الشروق، على أن ألحق بها لنشاهد معًا الشروق. لم أجدها ولم أجد حقيبتها، اتصلت بها، فلم ترد، فانتبهت لرسالة تركتها لي بجانب هاتفي:

صباح الخير يا زوجي الحبيب،

عدت إلى القاهرة بعد أن استمتعت بصحبتك يومًا وليلة ثم تحركت بعد أن اطمأننت أنك خلدت إلى النوم. أعلم أنك مرتبط بجدول محاضرات في جامعة الإسكندرية صباحًا، وبالطبع أنت تعلم ارتباطي بمحاضرتي في القاهرة، ورغم اتفاقنا على التحرك في الخامسة صباحًا لتوصلني وتعود لمحاضرتك في العاشرة، إلا أنني لم أشأ أن تقصر في عملك بعد أسبوع واحد لتصحبني. واليوم لدي امتحان فلن أستطيع التغيب. وأعلم أنك لم تكن لتتركني أعود وحدي، لذا سافرت بعد نومك. ستجد في حقيبتك كل ما تحتاجه لأيامك الثلاثة هنا، فقد خططت لذلك قبل حضورنا.

هيا انهض بنشاط لتلحق موعدك.

ملحوظة: لن أسمح لك بالتغيب أكثر من أيام ثلاثة، فإن لم تأت أنت أتيت أنا إليك، لن أتنازل عن حقي.

توقيع/ النجمة

انفجرت ضاحكًا حتى البكاء، فاطمة تركتني في الإسكندرية لعملي، ولم تدر أن محاضرتي في القاهرة وليست في الإسكندرية.

كنت قد شككت أن فاطمة تعرف بزواجي بعد ما قالته لي أمس، أما الآن فقد أيقنت أنها لا تعرف. يا لطيبة قلبك يا حبيبتي، أردت راحتي ولم تدركي أنك وضعتني في مأزق إيجاد طريقة للعودة للقاهرة في مثل هذا الوقت.

بعد ساعات ثلاث من الآن يجب أن أكون في القاهرة، ولسوء الحظ سأظل ثلاثة أيام دون سيارتي.

عاودت الاتصال بها لأطمئن عليها، فأجابتني وهي شبه نائمة: "صباح الخير يا علي."

ابتسمت رغم كل شيء وقلت: "صباح الخير يا قلب علي، حمدًا لله على سلامتك".

*****

اتصلت بإدارة الفندق لتوفر لي سيارة للقاهرة حالًا، ثم اتصلت بسارة أخبرها أن تنتظرني أمام باب الكلية لأضع حقيبتي في سيارتها، سألتني ما الأمر أخبرتها أنني سأخبرها عندما أراها.

وقد كان، قابلتني سارة عند بوابة الكلية وهي مبتسمة، ولكنها ضحكت عندما رأتني دون سيارتي وقالت: "هل طردتك الليدي فاطمة بشنطة ملابسك ولم تتمكن حتى من أخذ مفتاح سيارتك؟"

وضعت الحقيبة في السيارة وتركتها على عجل لألحق بمحاضرتي، وأخبرتها أن تنتظرني لنذهب للبيت سويًا.

وبعد يوم طويل، ذهبنا لبيتنا للمرة الأولى، أقبلت عليها وقد اشتقت لها، لكنها أوقفتني قائلةً: "أخبرني عما حدث أولًا".

كدت أن أخبرها بما حدث ولكنني توقفت في اللحظة الأخيرة، فإذا ما أخبرتها بما حدث ستعرف أنني لم أخبر فاطمة بعد، حمدت الله أن انتبهت في آخر لحظة، وأخبرتها أن سيارتي معطلة.

ولكن ردة فعلها أجمتني، إذ فغر فاها دهشة وقالت: "ألم تطردك زوجتك؟"

لم أكن بأقل منها دهشة وقلت: "تطردني؟ ظننتك تمزحين في الصباح عندما استخدمتِ هذه الكلمة. وأرجو أن تتحدثي عنها بطريقة لائقة".

ودخلت لتغيير ملابسي وتركتها في دهشتها التي لا تقل عن دهشتي، ولكن لكل منا أسبابه.

*****

عقل وقلب

أيام وأيام مرت، وما زال الأمر كما هو عليه. اضطررت للتقصير في حق فاطمة كثيرًا ولكنها لم تشتك. أصبح دخلي بالكاد يكفي بعد أن كنا في رغد من العيش؛ فزواجي من سارة يستنزف الكثير من دخلي على إيجار السكن والطعام الجاهز والذهاب لمراكز التجميل، مما جعلني أتأخر حتى في سداد مصروفات فاطمة الدراسية، وعندما ذهبت لسدادها فوجئت بأنها مدفوعة.

سألتها لماذا فعلت ذلك، فأجابتني بأنها تعلم أن مصاريف الدكتوراه تستنزف الكثير من دخلي حاليًا، فلم ترد أن تثقل علي.

الدكتوراه!! كم أنت مسكينة يا فاطمة.

سألتها على استحياء، كيف حصلت على المال، فأخبرتني عن البطاقة البنكية التي أعطاها لها والدها قبل زواجنا، وأنها تستعملها فقط بين حين وآخر.

وقتها انتبهت إلى عدة أشياء لم أنتبه لها قبلًا.

لم تطلب مني فاطمة يومًا أي نقود لنفسها، صحيح أنني لم أكن أبخل عليها بشيء، لكنها لم تطلب أبدًا.

تذكرت ما اشترته في رحلة روما، والذي فاجأتني بارتدائه.

تذكرت أنها هي من دفعت حجز الفندق عندما أخذتني للمنتزه.

تذكرت أنها ما طلبت مني أبدًا ثمنًا لوقود سيارتها وكنت أظنها تدفعه من مصاريف البيت العادية.

تذكرت وتذكرت، ووجدتني أحتقر نفسي كثيرًا.

ووجدت صدري يضيق بسارة وبما تكبلني به من نفقات بلا سبب.

اعتذرت لفاطمة عن تقصيري وعاهدتها أن أرد لها مالها قريبًا، وطلبت منها ألا تنفق من مالها أبدًا طالما أنا حي يرزق.

واقترب موعد امتحانات آخر العام، وما زال الأمر كما هو عليه، أكون مع سارة من السبت للإثنين، ثم أعود لفاطمة من الثلاثاء.

كنت أشعر بفاطمة تنطفأ. لم أقصر يومًا معها، ولم أبخسها قدرها. كانت وما زالت ملاذي وملجأي، أما سارة فكانت نزوتي، تمامًا كما قال أبي. تأكدت من ذلك يومًا بعد يوم، ولكنني لم أقدم على قرار الطلاق حتى الآن خوفًا من أن أظلمها.

وفي أول أيام الامتحانات، اتصلت بفاطمة لأطمئن على أدائها في الامتحان، طمأنتني، ثم سألتني عن امتحان البكالوريوس لدينا اليوم، أخبرتها أنه انتهى منذ ساعتين تقريبًا، وأن الامتحان التالي بعد أسبوع، فأخبرتني أنها ستمر على أسماء قبل عودتها للبيت فوافقت، ودخلت سارة وأنا أقول لفاطمة: "لا مانع لدي لكن لا تتأخري، وأعلميني بعودتك."

سألتني عما أقول، فأخبرتها. استغربت وسألتني: "ولماذا تخبرك من الأساس؟"

نظرت لها بدهشة وقلت: "من الطبيعي ألا تذهب الزوجة لأي مكان دون استئذان زوجها، ومع ذلك فلم أكن لأمانع، فأنا أعلم مدى صداقتهما

وأعلم أن أسرتها محترمة، والبيت الذي ستذهب إليه زوجتي هو بيت طيب".

"كان لابد أن أتوقع ذلك ممن ترتدي مثل ما ترتديه الليدي فاطمة ومن تفكر مثل تفكيرها، فالتي تقبل أن تتزوج طفلة ثم يتزوج عليها زوجها دون أن تثور هي بالتأكيد جارية، تنتظر أمر سيدها لتمارس حياتها العادية".

أمسكتها من ذراعيها وقلت لها أن هذه هي آخر مرة أسمح لها فيها بالحديث بسوء عن فاطمة. وأخبرتها أن فاطمة التي تتحدث عنها بتلك الطريقة، على وشك التخرج من كلية الهندسة والعمل بها معيدة لتفوقها. ولم تتزوجني وهي طفلة، بل كانت أنثى مكتملة الأنوثة، وكنت أول رجل في حياتها لأنها صانت نفسها وأطاعت ربها رغم أنها تحيا في مستوى اجتماعي ومادي يفوق إدراكها. ورغم تفوقها في دراستها لم تقصر يومًا في حق بيتها ولا زوجها ولا أهلها، وأن لباسها الذي تسخر منه هو لباس المسلمات المؤمنات، وأنها ترتدي أغلى الماركات العالمية بما يناسب دينها، وترتدي لزوجها ربما أفضل مما ترتديه الكاسيات العاريات من أمثالك.

فردت قائلة: "وإذا كان الأمر كذلك، فلم تزوجتني إذًا طالما أنك تهيم بها عشقًا هكذا؟"

صمت ثم قلت مختنقًا: "ظننتني لن أدور في فلكك".

استقبلتني والدة أسماء فاتحة ذراعيها وهي تقول: "أوحشتني يا فاطمة، أهانت عليك عشرتنا لتتركينا كل هذه المدة؟"

أوجعتني كلماتها، فاعتذرت لها عن انقطاعي وعن حضوري دون موعد، فلكزتني قائلة: "ومنذ متى وبيننا تلك الرسميات؟" وأشارت إلى غرفة أسماء لأدخل إليها.

لم أقابل أسماء أو أحادثها منذ أن تركت سيارتي يوم زواج علي.

طرقت الباب ودخلت فوجدتها نائمة، اقتربت منها وقبلت رأسها فتساقطت دموعي عليها رغمًا عني.

فتحت عيناها لتنقض علي محتضنة إياي شوقًا ليختلط دمعي بدمعها. لم نتعاتب ولم نتحدث فيما سبق. عدنا كما لو كان آخر حديث بيننا منذ سويعات قليلة. أخبرتها عما مر بي وأخبرتني عما مر بها.

أخبرتها أنني عرفت نتيجة الفصل الدراسي الأول الخاصة بها من "علي" وأخبرتني أنها عرفت نتيجتي كذلك من خلال أخت حازم والتي كانت تدرس لنا في الكلية كذلك.

دخلت والدتها على صوت ضحكاتنا، ووبختنا كما كانت تفعل دائمًا لضحكنا بصوت مرتفع.

سألتني أسماء عن حياتي، وكنت أعلم أنها تقصد علاقتي ب "علي"، فابتسمت وقلت "لا جديد"، ثم استدركت: "ألا تثقين بي؟"

أجابتني دون تردد: "بلى".

أجبتها: "قد تكونين يومًا ما دليل براءتي الوحيد".

زادت الخلافات بيني وبين "سارة"، لم تعد تتقبل ما أقول، ولا طريقة تفكيري. كان زواجي منها من الأساس أكبر خطأ ارتكبته في حياتي. أفكارنا مختلفة ونسير في طريقين مختلفين. ومع ذلك ترددت في طلاقها، لم أرد أن أصلح الخطأ بخطأ آخر.

ولكني فوجئت بها يومًا تخبرني بقبولها البعثة التي حصلت عليها لإحدى الجامعات الأجنبية. نظرت لها مندهشًا أن كيف تقرر شيئًا يتعلق بحياتنا معًا دون الرجوع إلي، وبالطبع رفضت سفرها رفضًا قاطعًا، لأتفاجأ بها تخيرني بين السفر والطلاق، فاخترت الطلاق غير نادم.

أصررت أن تجري سارة اختبار حمل قبل الطلاق حتى أقطع كل خيوط تلك العلاقة، لأتفاجأ بلطمة أخرى في وجهي، لقد كانت تستخدم إحدى وسائل منع الحمل دون علمي، بحجة أنها أرادت الاطمئنان إلى استمرارنا معًا أولًا!

هزتني كلماتها كثيرًا، ترى هل كان لكلماتي نفس الوقع على فاطمة؟ لم أعد أدري حقًا!

انتهت اختبارات نهاية العام، وتوافق ذلك مع تخلصي من أكبر خطأ أخطأته في حياتي. عزمت على تعويض فاطمة عن الأيام التي تركتها فيها سعيًا وراء سراب.

ظللت أفكر، هل يجب أن أروي لها ما حدث؟ أم سأدخل نفسي وأدخلها في نفق مظلم لا مخرج منه.

لم أكن أدري وقتها أن كل شيء في الحياة له ثمنًا غاليًا، وأن وقت السداد قد آن.

******

تغيرت فاطمة كثيرًا، أصبحت شاردة طوال الوقت ولا تترك هاتفها من يدها إلا نادرًا. هل حدث هذا التغير فجأة أم أنني كنت في عالم آخر ولم أنتبه له.

سألتها: "لم يكن اهتمامك بالهاتف لهذه الدرجة قبلًا".

فقالت: "وكيف ظننتني كنت أقضي وقتي بينما أنت في الإسكندرية لأيام ثلاث؟"، "وقبل ذلك كنت مشغولة بالمذاكرة، أما الآن فلا شاغل لي".

اقتربت منها هامسًا وقلت: "ألم يحن الوقت بعد لننجب طفلًا؟"

فابتعدت قائلة: "أتمزح يا علي؟ بالطبع ليس الآن، لا تنسى أنني سوف أبدأ التدريس في الجامعة مع بداية العام الجديد، ولا أريد أن يشغلني شيئًا عن ذلك في البداية".

نظرت لها بدهشة، ثم تداركت الأمر وقلت: "مر وقت طويل منذ أن سافرنا معًا، فما رأيك لو نذهب في رحلة لمشاهدة النجوم؟"

نظرت لي بسخرية وقالت: "مالنا والنجوم يا علي؟ اتركها للقلوب الغضة، واترك لنا العقول".

تذكرت وقتها جملة قالتها لي يومًا، فانقبض قلبي؛ التحول من القلب للعقل نار تحرق صاحبها أول ما تحرق.

تركت فاطمة هاتفها وقامت لتعد لنا بعضًا من عصير الليمون، هكذا قالت.

وبمجرد أن دخلت المطبخ حتى ظل هاتفها يصدر نغمة رسائل جديدة، استفزني الصوت المتتالي فأمسكت هاتفها لأرى ما جعل الدنيا تظلم في وجهي وينهار كل ما حولي.

*****

هل لي أن أعرف ما هذا؟؟

سألني "علي" هذا السؤال وهو ممسك بهاتفي، فاختطفته من يديه وسألته كيف يسمح لنفسه أن يفتحه دون إذني؟؟

صرخ في وأمسك ذراعي وقال: "من هذا الذي تتحدثين معه ويتحدث معك منذ أكثر من ستة أشهر؟ من الذي يسألك عن طلاقنا، من الذي ترسلين له صورًا لك؟"

هم بضربي فأفلت منه وخرجت مسرعة من المطبخ، وأغلقت باب غرفتي من الداخل. لم أر عليًا غاضبًا أبدًا لهذا الحد.

أجبته بثبات من خلف الباب: "هلا جلست لنتحدث بهدوء، أرجوك اسمعني".

ظل يضرب الباب بيديه وهو يتوعدني لأفتح، لكنني أخبرته أنني لن أفتح حتى يهدأ ويسمعني.

ظللنا هكذا طوال ساعة تقريبًا، كنت خلالها أذكره بأننا صديقان قبل أن نكون زوجين، وأننا قد تعاهدنا على الصدق منذ أول يوم، حتى هدأ قليلًا ووعدني أن يسمعني.

فتحت الباب فوجدته في أسوأ حال. نظر لي قائلًا: "كلي آذان مصغية".

كنت أبحث عن طريقة أو عن مقدمة أبدأ بها كلامي، ذكرته بما قاله لي في بداية زواجنا، لكنه قاطعني قائلًا: "بلا مقدمات أجيبي أسئلتي".

قلت بثبات: "هذا شريف، زميل تعرفت عليه أيام المدرسة، وسافر بعد الثانوية العامة ليدرس إدارة الأعمال في الخارج. عاد قبل حوالي ستة أشهر، وقابلته في الجامعة مصادفة."

أمسك علي بكوب أمامه وألقاه على الأرض قائلًا: "وماذا بعد؟"

"باختصار يا علي، شعرت خلال الفترة التي انتقلت فيها للعمل في الإسكندرية أنني أستطيع أن أحيا بدونك. وأن مشاعري نحوك لم تكن سوى مشاعر مراهقة أشبعتها العلاقة الزوجية. وبمرور الوقت نضجت واستطعت التمييز بين الحب الحقيقي والمراهقة والشهوة. كان لديك كل الحق عندما تحدثت معي يوم زواجنا عن التجربة الغربية، وكيف أننا إذا نقلناها في إطار شرعي، فإننا نحمي أنفسنا من الحرام ....."

صرخ في قائلًا: "الحرام؟؟ وهل علاقتك بهذا الشخص حلال؟؟"

أجبته بحزم: "لم أفعل ما يغضب الله، وأظن أنك لم تجد أي تجاوز في الحديث بيننا، وصوري التي أرسلتها له كلها بحجابي. أو لم تخبرني يومًا

عندما طلبت منك ألا تتبسط في الكلام مع زميلاتك في العمل وطالباتك أنه طالما يوجد حدود في الكلام فلا شيء محرم؟"

"وماذا عن طلبه إياك للزواج؟"

أظنك قرأت ردي، قلت له أنني امرأة متزوجة وأن عليه الانتظار حتى أحصل على الطلاق ثم نتحدث في هذا الأمر، وأخبرته أن يمهلني الوقت لأحادثك في الأمر.

نظر "علي" لي غير مصدق لما قلت، وصرخ قائلًا: "أغضبتِ الله وخنتي ثقتي فيكِ، لم أظنك تفعلينها يومًا، أنتِ طالق".

تحجرت الدموع في عيني، فرغم رغبتي في الطلاق إلا أن وقع الكلمة هزني. ما أغرب الكلمات، فبكلمة تبدأ علاقة وبأخرى تنتهي.

تغلبت على صدمتي وقلت: "بعد إذنك نذهب إلى المأذون الآن، لتسجيل الطلاق ثم أذهب لبيت أبي، وسأبريك من كل حقوقي. ولكن أرجوك إكرامًا لأهلي لا تخبر أحدًا بما دار بيننا الآن، فالأفكار التي آمنا بها سويًا لم يتقبلها المجتمع بعد".

نظر لي ساخرًا وقال: "آه بالطبع، سوف أخبر أبيك فقط أن ابنته المصون قد نضجت واكتشفت خطأ اختيارها، مع تعديل بسيط فيما رتبتِ له، فالطلاق الرسمي سيكون بالتنسيق مع والدك، كما كان الزواج. منذ اليوم لا علاقة بيننا، وانهضي لأذهب بك إليه كما أتى بكِ إلي".

*****

ها هنا انتهت مذكرات فاطمة. ولكن الحكاية لم تنته بعد، ما زالت في منتصفها. أسوء ما في الأمر أنني في أوج جرحي من فاطمة علمت من إحدى صديقات سارة أنها ما تزوجتني إلا رغبة في الانتقام من فاطمة. أرادت أن ترد لها الإهانة التي وجهتها لها في مكتب المحقق عندما أخبرتها أن كل يرى الناس بعين طبعه. وقتها قررت أنها ستنتقم وستكسر أنفها لذلك، ولكنها ما استطاعت فعل ذلك، وعليه قررت السفر إلى البعثة لتتخلص من هذه الزيجة التي كبلتها ولم تحقق منها مرادها. أخبرتني كذلك أنها قالت لها نصًا: "صحيح أنني كنت معجبة ب "علي" ولكنه كان نزوة في حياتي، فالحب شيء والزواج شيء آخر، وعندما تنطفأ الشهوة، يظهر كل شيء على حقيقته، وأنا على يقين أنه يعاني من نفس الأمر، ولكني لا أعرف سبب عدم طلاقه لي حتى الآن."

ازددت غمًا بغم لما علمت ذلك. شعرت أنني كنت لعبة بين يدي امرأتين استأمنتهما على شرفي فلم تصنه إحداهما. أتراني أسأت الاختيار في المرتين؟

رحماك يا رب العالمين!

وتستمر الحياة

كان طلاق علي وفاطمة مفاجأة للجميع، فقد كانا مضرب الأمثال. ظن الكثيرون أن السبب يعود لعدم قدرة أحدهما على الإنجاب. لم يتحدث علي عنها بسوء أبدًا. ظل كريمًا معها حتى النهاية، وكان آخر ما قاله لها: "لم أتحدث إكرامًا لعائلتك التي ما رأيت منها سوءًا قط، ولا ذنب لهم في انحراف أخلاقك".

وعندما سأله والدها عن سبب الطلاق أخبره أنه تم بناء على رغبتها، واعتذر عن الخوض في أي تفاصيل قائلًا: "كان زواجًا بالمعروف، وهو الآن تسريح بإحسان".

ثارت والدتها في وجهها بعدما رفضت إخبارها عن سبب الطلاق، وأصرت أن هناك مصيبة بالتأكيد استدعت ذلك. ودافع أخوها عن علي دفاعًا مستميتًا، وأقسم أنها بالتأكيد قد أقدمت على فعل مشين استدعى طلاقها. الوحيد الذي وقف بجانبها كان أبوها، وقد واجه أخيها وأخبره أنه طالما هو حي يرزق فلا يحق لأحد أن يتحدث مع ابنته بهذه الطريقة. أخبره أنها عرضه، وأن عليه ألا يسمح لأحد بهتكه، فمن غير المعقول ألا يتحدث عنها مطلقها بسوء ويتحدث أخوها به.

أخبرت فاطمة والدها أنها قد تنازلت عن كامل حقوقي ل "علي"، ولم يمانع في ذلك. وبعد انتهاء إجراءات الطلاق، جلس معها وقال ثلاث كلمات: "ابكِ يا فاطمة".

وكأنه قد ضغط على زر ما، فتفجرت الدموع من عينها أنهارًا. ظلت تبكي على كتفه لساعات دون توقف، وهو يربت على كتفها ويمسح على رأسها ويرقيها حتى غرقت في النوم. لم تستيقظ إلا في اليوم التالي لتجده مازال بجانبها، وقد غفا في مكانه.

قامت فقبلت رأسه، فاستيقظ مستبشرًا برؤية رآها، وبشرها بخير قادم ثم قال: "لم أشك فيكِ يومًا يا قلب أبيكِ، ومهما سمعت عنكِ فلن أصدق. أعلم أن لك عقلًا راجحًا، ولذا لم أضغط عليك لمعرفة سبب الطلاق. فالتي تتقبل الزيجة الثانية لزوجها دون أن تثير المشكلات ولا تخبر أحدًا، بالتأكيد راجحة العقل".

تسمرت في مكانها ونظرت إليه قائلة: "كيف ومتى عرفت ذلك يا أبي؟"

ابتسم وربت على كتفها قائلًا: "وهل تظننين أن زواجك يعفيني من مسئوليتي تجاهك؟"

صحيح أنني عرفت بعد زواجه، ولكنني لم أشأ أن أتدخل بأي شكل وخصوصًا بعد تأكدي من معرفتك بالأمر.

الشيء الوحيد الذي يحيرني هو قول علي أن الطلاق تم بناءً على رغبتك، فلماذا ترغبين في ذلك رغم طلاقه لزوجته الأخرى؟ كان يمكنني تفهم قرارك عند زواجه، أما الآن فأنا في حيرة من أمري حقًا يا ابنتي، فأنا على يقين من أنك ما زلت تحبينه رغم كل شيء.

طأطأت رأسها ولم تتكلم.

فتنهد وقام من مكانه وأخبرها أن تقوم لقضاء ما فاتها من صلوات أثناء نومها.

*****

ظهرت نتيجة فاطمة وكانت الأولى على دفعتها كما تعودت، وهو ما يعني أنه مع بداية العام الجديد سوف تذهب للكلية مرة أخرى ولكن للتدريس.

أرادت أن تطمئن على نتيجة أسماء، فمنذ سفرها لزوجها بعد انتهاء الامتحانات، قل التواصل بينهما. لم ترد ها أن تعلم بطلاقها من علي لأنها لم تكن لتتأخر عنها، فضلت أن تعرف بعد عودتها معه الشهر القادم في إجازته.

ذهبت إلى كليتها وهي تقدم إحدى قدميها وتؤخر الأخرى، كان لديها إحساس رهيب أنها سوف ترى عليًا. استعانت بالله ودخلت، سألت في قسم شؤون الطلاب على نتيجة البكالوريوس، وعلمت أن أسماء الأولى كذلك. بكت من فرحتها واتصلت بها لتبارك لها، لامتها قائلة: "أخيرًا تذكرتني؟! أسبوع كامل أنتظر مكالمتك ولم تفعلي".

أخبرتها أنها قد عرفتها لتوها، وأنها ما زالت في شؤون الطلاب حتى ولم تعد للبيت.

صمتت أسماء وقالت بحذر: "الكلية؟ هل أنت بخير يا فاطمة؟ هل أمورك بخير ما علي؟" لقد اتصل "علي" بحازم منذ أسبوع وأخبره

بنتيجتي، ألم يخبرك؟ ثم إن حازم قد أخبر عليًا كذلك بنتيجتك أول أمس، ألم يخبركِ أيضًا بذلك؟"

لم تدر ما تقول، فقالت لها أنها سوف تعاود الاتصال بها في وقت لاحق، لأنها لا تستطيع سماعها جيدًا.

أخذت نفسًا عميقًا للتغلب على عبرات تجاهد للسقوط، ثم استدارت لتذهب لسيارتها، فاصطدمت بشخص ما دون قصد لتجده عليًا.

تسمرت في مكانها، وكذلك هو. كانت أسرع منه في رد الفعل، فانصرفت مسرعة قبل أن تتطور الأمور.

كانت تعلم أنها ستراه.

دخلت سيارتها، لم تعد تحتمل. انهارت باكية على عجلة القيادة. دقائق قليلة، ثم رفعت وجهها ومسحت دمعها لتجده أمامها ينظر لها بابتسامة ساخرة.

أخذت سيارتها وانطلقت، وقد عزمت ألا تنظر للوراء.

*****

اتصلت ب "حازم" لأخبره بنتيجة زوجته، لم أتوقع جهلهما بأمر طلاقنا. فهمت ذلك من حديثه، فآثرت الصمت. وعندما حدثني ليخبرني بنتيجة "فاطمة" شكرته أيضًا دون أن أخبره بشيء.

طلاقنا كان صدمة للجميع. ثارت سلمى واتهمتني أنني أضعتها. سألتني لما لم أخبرها وأعطها الفرصة لتتعامل مع الأمر كما فعلت فاطمة معها ومع زوجها. ونظر لي أبي ولامني قائلًا: "ستندم على قرارك ذلك يوم

لا ينفع الندم".

جميعهم كانوا معها، ولم أرد أن أخوض في عرضها أمامهم. اكتفيت بإخبارهم أن الطلاق تم بناءً على رغبتها فقط، فنظرت لي سلمى بسخرية قائلة: "تأخرت كثيرًا في اتخاذ مثل هذا القرار".

كنت في حاجة للحديث عما بداخلي، تمنيت وجود حازم، فهو الوحيد الذي يمكنه فهمي، ولكن كيف كنت سأخبره بما حدث؟!

ابتسمت ساخرًا من نفسي، منذ ستة أشهر فقط كان لي زوجتين، والآن أصبحت صفر اليدين.

لم أستطع الصعود للشقة منذ آخر يوم كنا فيه معًا، سوى يوم واحد صعدت لأخذ ملابسي فشممت رائحة الخيانة في كل ركن. تخيلت "فاطمة" في كل ركن فيه وهي تتحدث مع زميلها، بينما أنا في أحضان زوجة أخرى.

تذكرت كلمتها عندما قالت "دقة بدقة ولو زدت لزاد السقا" فهل يعني ذلك أنها .....؟

استغفرت الله، واستعذت به من الشيطان الذي أوصل فكري لذلك، رغم ما فعلت إلا أنني متأكد أنها لم تنحدر لذلك أبدًا.

لم أعد قادرًا على الصعود لتلك الشقة مرة أخرى، أعطيت أمي المفتاح، لتتخلص من الطعام الموجود في الثلاجة وتغلقها جيدًا حتى أفكر فيما سأفعل في محتوياتها بعد أن تنازلت عنها الليدي فاطمة كما كانت تقول سارة.

"لست أدري يا حازم ولكن صوت فاطمة لم يكن طبيعيًا اليوم نهائيًا، أضف لذلك ذهابها للكلية لتعرف نتيجتها ونتيجتي، هناك شيئًا غير طبيعي، كما أنني أحاول الاتصال بها منذ أن أغلقت الخط ولا تجيبني، أرجوك اتصل ب "علي" واستفسر منه عن الأمر.

أخبرني حازم بهذه العبارة التي قالتها أسماء عند اتصاله بي. لم أدر بما أجبه، فسألته متى تعودون؟

قال إن موعد إجازته بعد شهر تقريبًا، فأخبرته أني في انتظاره، ولم أزد. أخبرني أن زميلًا له سوف يأتي لي في العيادة لعلاج أسنانه. زميل تعرف عليه وعاد للقاهرة ليستقر فيها. أستاذ في كلية الهندسة كذلك، ولكنه في حاجة لطبيب أسنان ماهر، فرحبت بذلك وأخبرته أنني بانتظاره.

أيام تمر وما زال في القلب غصة مما حدث. مرت شهور العدة وانتهت، ترى هل خطبت فاطمة لزميلها، أم رفضه والدها؟ لست أدري لما أتوقع أن يرفضه والدها. ربما هذا ما أتمناه وليس ما أتوقعه، ولا أدري السبب.

سألت نفسي يومًا، لم لم تشغل سارة تفكيري كما شغلته فاطمة؟ هل حقًا ما زلت أحبها رغم كل ما حدث، أم أن كبريائي الجريح ينتظر لحظة الانتقام؟

وأي انتقام سيشفي قلبي مثل عدم زواجها من هذا الشخص.

أفقت من شرودي على صوت مساعدي يخبرني بأن أحد المرضى في الخارج. دخل المريض والذي لم يكن سوى صديق حازم. رحبت به، وبدأنا في العلاج، شخص مهذب يكبرني بحوالي عشر سنوات، عاش معظم

حياته في الخارج ولكنه قرر العودة مؤخرًا والاستقرار في مصر. افترقنا بعد أن تبادلنا أرقام التواصل، يبدو أن ثمة صداقة ستنشأ بيننا، فقد شعرت براحة كبيرة تجاهه.

*****

ومع اقتراب العام الدراسي، عادت النشاطات الطلابية للجامعة ترحيبًا بالطلاب الجدد. ومع وقوفي في حفل الاستقبال تذكرت اللقاء الأول.

لكأني أسمع صوت أسماء تنادي فاطمة حتى أني تلفت حولي بحثًا عنها.

يا الله!! ألم يحن وقت النسيان بعد؟!

لربما أنا أسير في طريق خاطئ، فكلما سعيت نحو النسيان أنغمس أكثر في الذكريات، لكن إذا سعيت نحو تجاوز الأمر، فسأتذكر كل شيء بتفاصيله دون تأثر.

يجب أن أتوقف عن محاولة النسيان وأبدأ في تجاوز الأمر برمته.

وعادت أسماء

بدء العام الدراسي، لكن لم تبدأ فاطمة العمل من بداية الفصل الدراسي، فثمة بعض الإجراءات التي لم تنته بعد.

والأمر كذلك بالنسبة لأسماء أيضا، لكن وقت عودتها قد اقترب. افتقدتا بعضهما البعض كثيرًا، كانت تلك أطول مدة ابتعدتا فيها عن بعضهما البعض.

لم تخبرها بأمر طلاقها لم ترغب أن تحزن في الشهور القليلة التي تقضيها مع زوجها، كما أنها الوحيدة التي لن تتمكن من عدم إخبارها بالسبب الحقيقي للطلاق.

أخبرتها أسماء بعودتها يوم السبت القادم، واتفقتا على ترك الأسبوعين الأولين لأهلها وأهل زوجها ثم تتقابلا بعد ذلك.

استقرت حياة فاطمة إلى حد كبير، وهدأت ثورة غضب والدتها. وبدأت حياتها تعود لطبيعتها السابقة. الفرق الوحيد كان بداخلها، لم تعد كما كنت، لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي عاشت في بيت أبيها ثمانية عشر عامًا، بل أصبحت أنثى ناضجة عركت الحياة وعركتها، لم تعد تلك النجمة اللامعة، بل أصبحت تلك التي نزلت واحترقت وفقدت بريقها.

اعتقدت أن الأمر سيتغير بنزولها للعمل، وانغماسها فيه، فالفراغ في حد ذاته مشكلة.

"لا بأس، غدًا أتجاوز الأمر". هكذا حدثت نفسها.

احتجنا لبعض إصلاحات الكهرباء في البيت، فطلبت من أمي بعض المفكات. ضحكت وقالت: "منذ متى يا دكتور وأنت تستطيع العبث بالكهرباء، انتظر حتى يعود أباك".

ضحكت لما قالت، وقلت: "إذن فأنت لا تقدرين إمكانيات ابنك، آتيني بالعدة وسترين."

بحثت عنها فلم تجدها، ثم قالت: "تذكرت، ستجدها في شقتك، أخذتها مني فاطمة ....." وبترت حديثها.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: "لا بأس يا أمي سأحضرها".

نظرت لي غير مصدقة، كانت تعلم تجنبي للصعود. لكن الأمر بات مختلفًا الآن، فلقد بدأت تجاوز الأمر حقًا. أحمق هو من يضيع عمره ناظرًا خلفه، وأشد حماقةً من يسير خلف قلبه وشهواته، وقد فعلت الأمرين.

فتحت باب الشقة، ونظرت باستخفاف لكل ركن فيها. أعتقد أنه آن أوان التخلص من كل ما فيها. سأتصل غدًا بأحد معارض الأثاث المستخدم.

تذكرت أن فاطمة كانت تضع الأدوات في أحد أدراج المطبخ، فتوجهت إليه، وفتحته لأجد المفكات.

ابتسمت بسخرية، كانت منظمة رغم كل شيء.

لاحظت وجود هاتفًا في درج المطبخ. أمسكته وقلبته بين يدي. لم أتعرف عليه. أتراها كانت تحدث زميلها منه؟؟

حاولت فتحه فلم يستجب. بالطبع مرت عدة أشهر على غلقه. لا بأس بذلك، سأشحنه وأتسلى قليلًا، فها قد وهبني الله سبيلًا جديدًا يساعدني على التجاوز.

وبينما أخرج علبة المفكات وجدت أسفلها دفترًا للمذكرات، فررت أوراقه سريعًا لأجده بخط فاطمة.

ابتسمت ساخرًا؛ منذ متى كانت تكتب مذكراتها؟ لا بأس بالمزيد من التسلية.

أخذت الغنيمة التي وجدتها وأخذت المفكات، وأغلقت الباب وعدت.

أصلحت لأمي ما أرادت وأخبرتها عما نويته من بيع الأثاث، فنظرت نظرةً حزينة ولم تجب.

وضعت الهاتف في الشاحن، ثم ارتديت ملابسي وخرجت، فاليوم أقابل حازم صديقي بعد فترة طويلة من الفراق.

صحيح أنها ستكون مقابلة جماعية، ولكن لا بأس سنتفق على موعد آخر.

مررت عليه وأخذته في طريقي. وبعد السلام والمشاكسات، سألني عن أحوال زواجي، فأجبته ساخرًا: "أيًا منهما؟"

نظر لي مستفسرًا، فهو لم يعلم بأمر زواجي من سارة، كان قد سافر وقتها وخشيت أن أخبره كي لا يخبر زوجته، لذا لم يفهم ما قصدته.

ضحكت بسخرية ثم قلت باختصار لأننا كنا قد وصلنا: "طلقت فاطمة".

*****

أمضينا وقتًا طيبًا. لم نكن قد اجتمعنا منذ أكثر من عام. بالفعل تبقى صداقات الدراسة هي الأصدق والأبقى على مر الزمان.

احتاج حازم لبعض الوقت كي يستوعب المفاجأة التي أخبرته بها عند وصولنا، ثم اندمجنا في الحديث مع أصدقائنا ولم يتسن لنا الانفراد ببعضنا، وأصر أحد أصدقائنا على توصيل حازم بعد انتهاء اللقاء.

اتصل بي بمجرد وصوله للبيت وأخبرني أنه سيأتي إلي في البيت حالًا ليتبين الأمر.

ابتسمت لأنني كنت على يقين أنه سيفعل ذلك، لم يتغير قلبه بعد.

رجوته أن يؤجل اللقاء للصباح، ووعدته أن أمر عليه لنجلس معًا. لم أكن أدري أنني سوف أراه بعد ذلك بساعة.

دخلت غرفتي واغتسلت ثم استلقيت على السرير راغبًا في بعض الراحة.

جفاني النوم وظللت محدقًا في الفراغ حتى وقع بصري على الهاتف الذي وجدته.

ابتسمت بسخرية مريرة ثم التقطه إمعانًا في جلد قلبي عله يهدأ، ويا ليته هدأ!!

*****

رد حازم على اتصالي منزعجًا: "خيرًا يا علي، هل هناك مشكلة؟"

"ظننتك ما زلت مستيقظًا سامحني. لكن أرجوك أنا في حاجة للقائك وأسماء الآن. أنا في طريقي إليكما، فهل يمكنني الصعود؟"

اندهش حازم وقال: "وما علاقة أسماء بلقائنا؟"

"أرجوك يا حازم الأمر لا يحتمل التأخير، ولو كان يحتمله لما أتيت في مثل هذا الوقت."

"في انتظارك."

أول ما فعلت بعد وصولي كان اتصالي برقم مسجل باسم أسماء على الهاتف الذي وجدته، فهذا سيجنبني مشقة البحث عن بداية.

لم تنتبه أسماء للهاتف في يدي ولكنني انتبهت أنها تغلق الخط في وجه المتصل. عاودت الاتصال فأغلقت الخط مرة أخرى، ثم أرسلت رسالة "سأعاود الاتصال لاحقًا".

وجهت سؤالي لها مباشرة: "لما لا تجيبين هاتفك؟"

نظرت لي بدهشة وقالت: "وما علاقتك بهاتفي يا دكتور علي؟"

ارتفع صوتي رغمًا عني وقلت: "لا تجيبي عن سؤالي بسؤال".

ولكن حازم تدخل وقال بصرامة: "انتبه يا علي لحديثك ولا تظن أن موافقتي على جلوسها معنا الآن تعطيك الحق في محادثتها بتلك الطريقة".

حاولت تمالك نفسي واستعادة بعض الهدوء، وأجبتها: "أرجوكِ أخبريني عن صاحب الرقم الذي يتصل بك الآن".

"هل فقدت عقلك؟ أي قول هذا الذي تقوله، هل أتيت لبيتي في هذا الوقت لتسمعني وزوجتي مثل هذا الهراء؟"

أخذت نفسًا عميقًا لأسيطر على نفسي وقلت: "أنا آسف لم أقصد المعنى الذي بدى من كلامي، لكن أرجوكِ أخبريني لمن هذا الرقم أرجوكِ لم أعد أفهم شيئًا. وأشرت للهاتف، وقلت: أنا من اتصل بكِ الآن، وأنا من تسلم الرسالة وليس صاحب الرقم".

وقبل أن يتحدث حازم، قالت أسماء: "لفاطمة".

ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة.

*****

ها قد أخبرتك يا دكتور علي بأن الرقم لفاطمة، هلا أخبرتني عن السبب؟

وجهت لي أسماء هذا السؤال، وانتظرت إجابتي عليها. لم أعرف من أين أبدأ.

قلت: "طلقت فاطمة من حوالي أربعة أشهر وكان سبب الطلاق هو ...."

ترددت قليلًا ثم قلت: "هو معرفتي بعلاقتها بشخص آخر."

شهقت أسماء، وصرخت في وجهي: "أمجنون أنت؟، انتبه لما تقول، كيف تجرؤ على اتهامها بمثل هذا الاتهام؟"

وقبل أن تسترسل، قلت: "لم أتهمها، بل أخبرتني هي بذلك، وطلبت الطلاق."

سقطت أسماء على مقعدها وقد ألجمتها كلماتي. أما حازم فقد قال باضطراب: "علي، ما جدوى هذا الكلام الآن إذا كان الأمر قد انتهى؟ لم أعهدك ممن يتحدثون في أعراض الناس".

أما أسماء فقد قالت بصرامة بعد أن استفاقت من صدمتها: "صه؛ أي أعراض تلك التي تظنه يخوض فيها؟ أقسم بالله أن فاطمة لا تفعل ذلك أبدًا، ولو قالت لي ذلك بنفسها ما صدقتها، ولو رأيتها بأم عيني، لكذبت عيني."

أطرق حازم برأسه ولم يجب، أما أنا فقلت: "ليتني امتلكت نصف ثقتك تلك، حديثها كان واضحًا معي دون مواربة، فهلا استمعتِ لي؟"

رويت لهما كل ما حدث بيني وفاطمة، حتى لحظة رؤيتي لها تبكي في السيارة رويتها لهما. ثم أخبرتهما كيف وجدت الهاتف وكيف فتحته بعد أن تركت حازم من سويعات قليلة، لأتفاجأ أنه الطرف الثاني للمحادثات التي رأيتها على هاتف فاطمة. ومكالمات طويلة بين هذا الرقم ورقم فاطمة. فعليًا لم أجد على هذا الهاتف سوى محادثات ومكالمات بين صاحب هذا الهاتف وبين فاطمة، ثم وجدت محادثة قصيرة بين رقم مسجل باسم "أسماء" وصاحب الرقم تسألين فيها "لم تبحث في دفاترك القديمة يا أستاذ شريف، مصحوبا بوجه ضاحك"، لذا اتصلت بكِ بمجرد دخولي لأتأكد أنه رقمك.

قالت أسماء بسخرية: "وهل ظننتني على علاقة ب "شريف" أنا الأخرى فأتيت لتخبر صديقك ليطلقني؟؟"

ابتلعت الإهانة وأطرقت بوجهي صامتًا. أضافت: "بالمناسبة يا دكتور، كنت وفاطمة في مدرسة للبنات، ولم نذهب لمراكز الدروس الخصوصية أبدًا، فلم نكن في حاجة لها. والآن أخبرني؛ هل كانت فاطمة تستقبل شريف في بيتك الواقع أعلى بيت والديك أثناء غيابك، ونسى هاتفه في درج المطبخ؟"

توجه لها حازم وقال بصرامة: "يكفي يا أسماء، الأمر لا يحتمل السخرية. أتى عليٌ لأنه يريد أن يفهم. وأي رجل في مكانه لم يكن ليتصرف بشكل مختلف. والآن إما أن تخبرينا بما تعرفين أو تنسحبي لغرفتك حتى أنهي كلامي مع علي."

صمتت أسماء قليلًا ثم قالت: "ليس لدي الكثير لأخبركما به. هذا الرقم تمتلكه فاطمة منذ أن كنا في الصف الأول الثانوي. كان بيننا خلاف، وأقسمت لها أنني لن أحادثها مرة أخرى. وبالفعل لم نتحدث لثلاثة أيام. فاشترت فاطمة هذا الهاتف وظلت تبعث لي برسائل غرام على أنها شخص يدعى شريف، لأنها كانت تعرف أنني سأتصل بها لأسألها ماذا أفعل، فلم تكن إحدانا تخطو أي خطوة دون مشورة الأخرى. وبالفعل حدثتها أسألها ماذا أفعل دون أن أخبرها باسم الشخص الذي يراسلني، فانفجرت ضاحكة وقالت: "ها قد حنثتِ بقسمك واتصلت بي، فاللهم بارك في الأستاذ شريف".

لوهلة، لم أستوعب ثم انفجرت ضاحكة أنا الأخرى بعد أن فهمت أنها هي.

ران صمت ثقيل بعد أن انتهت أسماء من روايتها لم يقطعه سوى حازم قائلًا: "ولماذا تفعل فاطمة ذلك مع زوجها؟ لماذا توهمه أنها على علاقة بشخص آخر وتترك الأمور تصل للطلاق؟!"

قالت أسماء: "لا أدري"، ثم نظرت لي نظرة لم أفهم معناها وقالت: "ولكن بالتأكيد هو يدري".

كنت في واد آخر، كنت أشعر أنني في منزل خاو وجدرانه تنهار فوق رأسي. لم أعد أفهم شيئًا. لماذا فعلت فاطمة ذلك بي وبنفسها؟!

أفقت على صوت أسماء وهي تقول: "فاطمة رتبت لذلك الأمر منذ فترة، وكانت تعرف أنك ستأتي إلي وتسألني".

سألها حازم: "كيف ذلك؟"

قالت: "عندما علمت فاطمة ب.... أقصد أنه من فترة اختلفنا قليلًا وعندما أتت لمصالحتي قالت لي قبل أن تتركني ("قد تكونين يومًا ما دليل براءتي الوحيد") ولم أفهم ما تعنيه بذلك، واليوم فقط فهمت ما تعنيه.

اكتفيت تمامًا بما سمعت، شعرت بشلل في تفكيري.

نهضت ناطقًا جملة واحدة: "لابد أن أرى فاطمة الآن".

أمسكني حازم قائلًا: "انتظر للصباح يا علي، الوقت تجاوز منتصف الليل. لم تعد فاطمة زوجتك لتذهب إليها وقتما تشاء".

ولكن هيهات، لم أعد أطيق الانتظار.

نظرت إلى الساعة بمجرد أن وصلت إلى بيت فاطمة، فوجدتها قد تجاوزت الثانية صباحًا.

ترددت كلمة حازم في أذني "لم تعد فاطمة زوجتي لأذهب إليها وقتما أشاء".

أوقفت السيارة، وقررت الانتظار فيها حتى الصباح.

أفقت على طرقات على شباك السيارة. يبدو أنني غفوت أثناء انتظاري.

نظرت فإذا به والد فاطمة يبتسم لي، فتحت الباب وسلمت عليه، وقبل أن أتحدث قال: "هيا لصلاة الفجر".

وبعد الصلاة، سألني عن سبب تواجدي في مثل هذا الوقت فأخبرته أنني أريد أن أرى فاطمة ولولا أني استحييت أن أصعد في وقت متأخر لفعلت.

أطرق برأسه قليلًا ثم قال: "دعنا نجلس في المسجد حتى الشروق، ثم نصعد معًا."

وقد كان.

*****

دخل والد فاطمة للبيت وطلب من والدتها أن توقظها وتخبرها أن عليًا ينتظرها في الخارج. نظرت فاطمة إلى الساعة فوجدتها السادسة صباحًا.

نظرت لوالدتها متعجبة وقالت: "علي؟!"

لم يكن الأمر يحتاج منها لكثير من الذكاء لتعرف أنه قد وجد الهاتف والمذكرات.

تساءلت بينها وبين نفسها، ترى هل أخبر أبيها بالأمر أم لا؟

"السلام عليكم".

نطقتها فاطمة، فانتفض عليٌ من مكانه مقبلًا نحوها، شعرت أنه يرغب في ضمها إليه، إلا أن يد والدها أوقفته قائلًا: "فاطمة ليست زوجتك".

تسمر علي في مكانه، شعر باختناق الكلمات في حلقه، ولم يستطع النطق.

"أخبرتني أمي أنك تريد التحدث معي".

قالتها فاطمة، فأطرق صامتًا، علمت أنه لا يريد الحديث أمامها، إلا أنها قالت: "يمكنك قول ما تريد، فلطالما أتيت في مثل هذا الوقت فبالتأكيد عرفت الحقيقة كاملة. يمكنك أن تروي الأمر كله من بدايته، فلم أرو لها شيئًا."

وبدأ علي في الحديث.

*****

وهناك في بيت حازم وأسماء كان هناك حوار من نوع آخر.

"ألم تفتح فاطمة هاتفها بعد؟"

سألها حازم هذا السؤال فأجابته بالنفي.

لم يستطيعا النوم تلك الليلة.

طوال الليل وهي تحاول الاتصال بفاطمة ولكن هاتفها مغلقًا. حدثت نفسها: "لم تتغيري البتة يا فاطمة. ما زلت تصرين على غلق هاتفك قبل النوم".

أرسلت لها عدة رسائل كي تتصل بها بمجرد أن تستيقظ. كانت تريد أن تحادثها قبل أن تلتقي علي لكن دون جدوى.

سألها حازم: "لا أعلم كيف فعلت فاطمة ذلك".

قالت ساهمة: "أنت لا تعلم شيئًا يا حازم، لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، ولكن هذه المرة فاق رد الفعل الفعل في قوته".

انفجر حازم ضاحكًا وقال: "لم أكن أعلم أنكم تدرسون الفيزياء في طب الأسنان".

وعلى الرغم من أنها تعلم أنه يحاول التغلب على توتره بهذا المزاح إلا أنها قالت: "ألا تعلم حقًا لما فعلت فاطمة ذلك؟"

نظر لها بدهشة وقال: "وهل تعلمين أنتِ؟"

"إذن فأنت لا تعرف حقًا. أنا متأكدة أن فاطمة فعلت ذلك لترد له صفعة زواجه عليها، ولكني لا أدري لم تركت الأمور تصل لهذا الحد رغم علمها بطلاقهما".

زواج من وطلاق من؟ ما الذي تقولينه يا أسماء؟ علي تزوج بأخرى غير فاطمة؟

سأخبرك بالأمر كله قدر علمي.

*****

نظر لها والدها نظرة عتاب طويلة بعد أن انتهى علي من كلامه، ثم توجه لعلي بالحديث قائلًا: "لن أدافع عن موقف فاطمة، فمهما كانت الأسباب فلقد أساءت التصرف بشكل لم أتوقعه منها، ولكن ما أريد أن أقوله الآن يا بني أنني أدين لك بالشكر لأنك لم تتحدث عنها بسوء وصنت

شرفها رغم أنك كنت في موقف لا تحسد عليه، لكن نبل أصلك غلب حميتك".

ثم نظر لها قائلًا: "والآن دورك لتوضيح موقفك".

لكن علي بادره وقال: "بغض النظر عن السبب يا عماه، فأنا مدين لها باعتذار. فمهما حدث فقد كان يتوجب علي ألا أصدق فيها شيئًا. لن أستطيع أن أصف لك مدى شعوري بالضآلة عندما أقسمت أسماء أن فاطمة لا تفعل ذلك أبدًا.

ابتسمت واغرورقت عيناها بالدموع، "لم تخيبي ظني يا صديقتي".

أخبره والدها أن الوضع مختلف، وأن الرجل الحر لا يقبل ما حدث بأي شكل كان.

توجه لها علي بالحديث وقال: "أعلم أنك تملكين سببًا مقنعًا لما حدث، ولكني لا أرغب في أي عتاب الآن، أرغب في سماع كلمة واحدة فلا تحرميني منها. سامحيني يا فاطمة، وأخبريني أنكِ فعلت."

نظرت له نظرة مطولة وقالت: "سامحتك".

وفي لحظتها التفت لوالدها قائلًا: "سوف أتصل بأبي وأمي وأخبرهما أننا سوف نعود اليوم. أظن أنه يمكننا الذهاب للمأذون وقت صلاة الظهر، فهل تسمح لي بالبقاء هنا حتى ذاك الموعد؟"

وقبل أن يجيبه، التفتت وقالت: "ولماذا نذهب للمأذون؟"

ضحك علي وقال "انتهت فترة العدة، لا يمكنني ردك إلا بعقد جديد".

نظرت له وقالت: "وهل سألتني عن رأيي في الزواج منك، حتى تقرر مثل هذا الأمر؟"

ران صمت طويل، قطعه والدها قائلًا: "ما بكِ يا فاطمة؟ ألم تخبريه أنك قد سامحته؟"

"بلى فعلت يا أبي، ولكن هذا لا يعني موافقتي على العودة إليه".

ثم نظرت إلى علي وقالت: "قد يكون السبب الذي دفعك لطلاقي انتهى، وعليه فأنت تريد الرجوع. ولكن بالتأكيد هناك سبب ما جعلني أوصل الأمور لهذا الحد وبالتأكيد لم ينته بانتهاء سببك. هل تظنني حمقاء لأوهمك بشيء يسيء لي وأدع الأمور تصل للطلاق دون سبب؟ أنا لا أتحرك بقلبي يا علي يحركني عقلي، وقد حذرتك من ذلك قبلًا."

رد والدها بحزم: "أريد تفسيرًا لهذا الموقف يا فاطمة".

"سامحني يا أبي لن أستطيع أن أفسر الأمر أكثر من ذلك. لعلي في عنقي دين أرده الآن. لم يسيء لي بكلمة واحدة أمامك ولا أمام أي شخص. ولا أستطيع أن أفعل ذلك معه الأن. فإن أنا تحدثت، أسأت إليه، وإن سكت ربما أرغمتني على العودة، وهذا ما لن أقبله".

*****

المواجهة

لم يستطع علي أن يتفوه ببنت شفة. ألجمه حديث فاطمة. دارت في رأسه كل الأفكار، حتى شعر بالشلل.

أنقذه صوت والدها وهو يقول: "أخرجا إلى الشرفة وتحدثا وسأنتظركما هنا".

وجلسا معًا وفي داخله يشعر بانقباض في قلبه. كان يظن أن أصعب خطوة تكمن في أن تسامحه، يا له من غر ساذج!

"لماذا يا فاطمة؟"

غضت بصرها عنه وطلبت منه أن يفعل المثل لأنه ليس من محارمها.

تصر على جلده بسوط العذاب.

أجابته: "ولماذا كذبت علي بشأن زواجك من سارة يا علي وأخبرتني أنك تعمل في الإسكندرية؟"

انتفض من مكانه، "تزوجت؟؟ كيف عرفتِ؟"

"وهل ظننتني لا أعرف؟ لقد عرفت بزواجك من يومها يا علي".

قال مدافعًا: "لم أفعل ما يغضب الله، استعملت حقي الشرعي".

ابتسمت بسخرية مريرة وقالت: "يبدو أنك لم تسمع جيدًا ما قلته، سألتك لم كذبت علي ولم أسألك لم تزوجت".

"أنت السبب في هذا الزواج، لو كنتِ..."

بصرامة قالت: "إذا واصلت الحديث بتلك الطريقة فلا داعي لجلوسنا معًا الآن. للمرة الثانية أقول لا ألومك على الزواج. كلامي محدد لم لم تخبرني بأمر زواجك؟ لم كذبت علي؟؟"

"أكنت ستقبلين إذا أخبرتك؟"

"ربما نعم وربما لا. لا يمكنني أن أحكم بذلك الآن. ولكن ما أعرفه أنني كنت أحبك ولم أكن على استعداد لخسارتك."

"ربما خفت من خسارتك. ربما لم يكن لدي سبب لهذا الزواج".

"لم تكن في حاجة لكل ذلك. منذ اليوم الأول اتفقنا أننا صديقان. أنا أعلم جيدًا أن الرجل قد يتزوج امرأة بعينها لمجرد أنه يشتهيها لا لعيب في زوجته الأولى. قرأنا ذلك معًا، ألا تذكر ذلك؟؟"

"كان الأمر كذلك بالفعل أقسم لكِ. وقد طلقتها وانتهى الأمر. ونلت عقابي في بعدك، فلا معنى لاستمرارك في العقاب".

"عقاب؟! أنا لا أعاقبك يا علي. لقد تجاوزت الأمر برمته"..

"دعينا نبدأ من جديد. امنحيني فرصة أخرى. حاولت العدل بينكما قدر استطاعتي".

"العدل؟؟ أي عدل هذا الذي تتحدث عنه؟ هل من العدل أن تعرف هي بزواجك مني ولا أعرف أنا بزواجك منها؟؟ هل من العدل أن تكذب علي ولا تكذب عليها؟؟ لا يا علي، أنت لم تعدل بيني وبينها أبدًا. اختيارك لها من الأساس كان ظلمًا لي. اخترت زوجةً أقل ما يمكن أن انتقدها به أنها غير محجبة غير ملتزمة ظاهريًا بما أمر الله. اخترت زوجةً خاضت في سيرتي

يومًا. أتذكر يوم أن أخبرتك بحملي؟ كنت أتمنى أن أرى فرحة في عينيك. ربما لو كنت رأيتها لكنت غفرت لك. لكنك لمتني ووبختني ثم انفرجت أساريرك عندما أخبرتك أنها مزحة. أهذا هو العدل الذين تتحدث عنه؟!

ألم تفكر ماذا إن وهبك الله بنتين إحداهما منها والأخرى مني؟ فعلى أي مبادئ كانت ستنشأ الأختان؟ على الأقل كنت اخترت من توافق مبادئك. أم أنك لا تؤمن حقًا بتلك المبادئ؟

أتعلم أنها قد زارتني في الكلية وأخبرتني بزواجك منها ظنًا منها أنني لم أر الصور التي أرسلتها لي بنفسها ومن هاتفها يوم زواجكما؟ هل تعرف أنني حاولت الاحتفاظ ببقايا كرامتي لأرد عليها وقتها وقلت لها: "وماذا في ذلك؟ اشتهى زوجي نوعًا آخر من النساء فأقبل عليه في الحلال، فلماذا أنكر عليه ما أحله الله؟؟"

هاله ما سمع منها وزاده غمًا بغم، فقال بانكسار: "لكنني عدت وندمت فاغفري".

"لماذا لا تريد أن تفهم؟ لماذا تجبرني على قول ما لا أريد قوله؟ لا يمكننا العودة يا علي لا يمكننا العودة".

"ولم؟ أخبريني بربك لم؟ لا تفعلي معي ذلك."

لم تتمالك دموعها وقالت: "لأنك فقدت احترامي. لم أعد احترمك يا علي. أراك صغيرًا. أراك كاذبًا. مواقف لا تنتهي لا يمكنني نسيانها. أعطيتك عدة فرص لتخبرني بالحقيقة ولكنك جبنت عن فعل ذلك. أتذكر عندما تركتك في الإسكندرية؟ أتذكر حين أخبرتك بحملي؟ هل تظن أن الأمر كان

سهلًا علي وأنا أتلاعب بك كالدمية؟"

صرخ فيها: "كيف يمكنك أن تحادثيني بمثل هذه الطريقة؟ انتبهي لما تقولين. اعتبريها نزوة مررت بها. اشتهيت امرأة وتزوجتها على كتاب الله وسنة رسوله، وإن كنت قد كذبت عليكِ، فقد كنت أحافظ على مشاعرك، لم أرد أن أجرحك".

"وهل ارتويت؟ وهل حفظت مشاعري؟ أنت ما زلت ظمآن وأنا انكسرت مشاعري".

بهت من ردها. لم يجد ردًا مناسبًا فقال: "تجربة وانتهت دعينا لا نتحدث عنها مجددًا".

هاله ردها فقد قالت: "لن أتمكن من الحياة مع شخص كاذب. كما أنني أريد خوض تجربة جديدة على كتاب الله وسنة رسوله أيضًا".

"أتفكرين في الزواج من غيري يا فاطمة؟ ومن هو هذا الشخص أخبريني؟"

نظرت له بلا أي انفعالات على وجهها وقالت: "وهل كان عليَّ أن أحيا على ذكراك حتى تعرف الحقيقة وتعود لي؟ وماذا إن كنت أفكر في الزواج من غيرك؟ أليس هذا حقي الذي وهبني الله إياه؟ أنا الآن لست زوجتك، أنا مطلقتك، ولا يعيبني أن أتزوج من شخص آخر".

"وماذا عن قلبك؟ أنا متأكد أنه ما زال ينبض لي، ما زال ملكي".

"قلبي؟ مالي وقلبي؟ أنا شخصية عملية. يسيرني عقلي في إطار طاعة الله ورضاه.

لم أعد تلك المراهقة التي تأسرها النجوم. انتهى الأمر يا علي. وعليك أيضًا أن تتجاوز الأمر وتنسى. ابدأ حياتك من جديد، ربما مع سارة أو غيرها، لكن بالتأكيد لن أكون أنا".

*****

بداية جديدة

مرت الأيام وبدأت فاطمة عملها في الجامعة.

نظرت إلى نفسها في المرآة وابتسمت بسخرية.

تذكرت أول أيامها في الجامعة عندما التحقت بكلية الهندسة، وها هي تعود إليها اليوم معيدة لا طالبة، وشتان بين اليومين.

لم تعد لها تلك النظرة الحالمة التي كانت في عينيها وقتها. رأت في نظراتها قسوة لم تعتدها. أتراها أصبحت قاسية حقًا أم أن هذا ما تريد للكل أن يراه؟

الشيء الوحيد الذي لم يتغير في حياتها هو أسماء. ستمر عليها لتذهبا معًا كعادتهما.

وعندما همت بركوب السيارة، نظرت على زجاجها الأمامي بحركة لا إرادية.

أظنته قد .....؟!

أشاحت بوجهها وركبت سيارتها وانطلقت إلى أسماء التي ما إن دخلت حتى أعطتها باقة زهور حمراء وقالت: "الورد جميل – جميل الورد".

قربت الورد من أنفها واستنشقت عبيره، ثم أطلقت ضحكة قصيرة وقالت: "مجنونة أنت بالديجافو[1]، تصرين أن تشعريني به".

---

[1] وهم سبق الرؤية أو ديجا فو (Déjà vu) أو ديجاڤو كلمة فرنسية تعني "شوهد من

عبست وقالت لها مازحة: "هل هذا جزائي؟ أعطني إياه إذن".

تبادلتا الضحكات وعادت بهما الذكريات لسنوات مضت تغير معها كل شيء لكنها لم تغير من قلبيهما شيئًا.

خطوت أولى خطواتها للداخل، ودارت ببصرها بين الوجوه تتصفحها كأنها تبحث فيها عن نفسها التي كانت.

فاصطدمت عيناها بعينه.

ارتجفت من رأسها حتى أخمص قدماها. هل هذا "علي" حقًا يجلس بين الطلبة أم تراها تتخيل؟

سحبت بصرها قبل أن تفقد الوعي.

ومضى اليوم وهي غير مدركة لما حدث، هل كان موجودًا حقًا أم كانت تتوهم.

وفي نهاية اليوم اصطحبت معها للبيت باقة الورد التي أحضرتها أسماء. وبينما تضعه في المزهرية، سقطت بطاقة صغيرة منها مكتوب عليها: "بداية جديدة. حاولت ألا أفي بوعدي فأخفقت. مبارك".

إذن فقد كان علي موجودًا حقًا، لم تكن تتوهم.

لكن ماذا عن الورد؟

قبل"، في إشارة إلى ظاهرة أُطلق عليها هذا الاسم من قبل العالم إميل بويرك في كتابه مستقبل علم النفس. وهي الشعور الذي يشعر به الفرد بأنه رأى أو عاش الموقف الحاضر من قبل.

اتصلت بأسماء التي ما إن ردت حتى قالت ضاحكةً: "لم أكن لأرفض طلبًا لزوجي".

قالت لها معاتبةً: "كيف وصل الورد إليكِ؟"

قالت: "أرسله لي صباحًا، وطلب من حازم أن يخبرني. ألم يحن الوقت بعد يا فاطمة؟ أخطأ ثم عاد وأصلح خطأه وندم، فلم العناد؟"

"لماذا لا يمكنكم جميعًا الاقتناع أن هذا الأمر قد انتهى بالنسبة لي؟"

"لو اقتنع الجميع بذلك يا فاطمة، فلن أفعل. أعلم جيدًا ما بقلبك وأعلم أن عقلك هو من يحركك الآن وليس قلبك. لكن إلى متى يا فاطمة؟"

اختنقت العبرات في حلقها وقلت: "تصبحين على خير يا صديقتي".

*****

انشغلت كثيرًا في عملها ومذاكرة الماجستير، وهو ما ساعدها على تجاوز الأمر تمامًا. كانت سلمى تتصل بها من وقت لآخر للاطمئنان، فثمة صداقة بينهما لم تستطيعا التخلي عنها. لكنها لم تحدثها أبدًا عن علي، فقط تخبرها أن والديها قد اشتاقا لرؤيتها.

لم تترك فاطمة نفسها للفراغ، فبالإضافة للعمل والمذاكرة انغمست في الأنشطة الطلابية. رتبت الندوات واللقاءات وحضرت معظم الفعاليات. ثمة ما تعلمته من علي بخصوص هذا الأمر، فقد أخبرها يومًا أنه متى كان أستاذ الجامعة قريبًا لطلابه زاد نجاحه، وأفضل طريقة لذلك هي الانغماس معهم في الأنشطة والفعاليات.

يومًا ما اتصلت بها إحدى الزميلات من كلية الآداب وأخبرتها أن الجامعة تنظم ندوة عن الزواج المبكر وطلبت منها أن تكون ضيفة شرف هذه الندوة وتشرح وجهة نظرها في الأمر من خلال تجربتها الشخصية. في البداية رفضت، ثم وعدتها بالتفكير في الأمر.

وبعد تفكير عميق وافقت، لكنها اشترطت عدم التحدث في أمور خاصة وأن يكون الحديث عن التجربة بصفة عامة.

لم تتحمس أسماء كثيرًا لتلك الندوة وأخبرتها أن مثل تلك الندوات التي تنظمها الجمعيات النسائية غالبًا ما يكون لها دوافع أخرى. أخبرتها بشرطها، فوافقت دون اقتناع.

وفي اليوم المحدد شعرت بالرهبة الشديدة وهي ترى هذا العدد الكبير من الحضور، لم تتوقع ذلك.

ودون وعي منها بحثت عنه بين الحضور.

وبدأت إحدى الحاضرات في الحديث عن الزواج المبكر والكوارث التي تحل على المجتمع بسببه، وأننا لابد أن نقاوم ذلك الأمر ونحاربه. تحدثت عن الآثار السلبية له ثم استدارت وأشارت لفاطمة قائلةً: "ومعنا إحدى ضحايا هذا الزواج والتي ستحدثنا عن تجربتها الشخصية في هذا الأمر".

فُغِر فاهها. ضحية؟! هكذا إذن.

نظرت لأسماء التي كانت جالسةً في الصف الأول وعيناها تقولان: "كنتِ على حق يا صديقتي".

لا بأس، سوف ألقنهن درسًا لن يتوقعنه، هكذا أخبرت نفسها.

بدأت الحديث بكلمة: "أنا المهندسة فاطمة الزهراء محمد، ولست ضحية بأي شكل من الأشكال".

سرت همهمات بين الحضور ونظرت لها المحاضِرة شذرًا لكنها تجاهلت الأمر وأكملت: "واضح من المقدمة أن كلامي لن ينال إعجاب الحضور، ولكنني سأتحدث اليوم بقناعاتي الشخصية من خلال التجربة التي مررت بها والتي أراها أفضل ما حدث لي في حياتي".

"بدايةً، أريد أن أتوجه للحضور بسؤال: ما هي المشكلة الكبرى التي تواجه المراهقين من الجنسين في مجتمعنا؟"

أدارت وجهها بين الحضور ثم أردفت: "الاحتياج العاطفي والجنسي".

ران الصمت بين الحضور وكأن أحدًا لم يتوقع منها الحديث بهذه الطريقة.

قالت: "نخدع أنفسنا لو قلنا إن هذا الأمر لا يشغل بال الشباب في العالم بأكمله وليس في مجتمعنا فقط، الفرق الوحيد أن المجتمعات الغربية لا قيود لدى معظمها في العلاقات سواءً العاطفية أو الجنسية. أما في مجتمعاتنا فالموضوع مختلف؛ كون المجتمع تحكمه عقائد دينية سواء إسلامية أو مسيحية، وهو ما يجعل كل من تحكمه تلك العقائد يعاني من الكبت العاطفي والجنسي. أما من لا يلتزم بتلك العقائد، وهذا مع شديد الأسف ما أصبح منتشرًا في مجتمعنا، فيقلد التجربة الغربية بحذافيرها. وإن حاول البعض إسكات ضميره يلجأ للزواج العرفي، مع حرمانيته وما يصحبه من

ضياع لحقوق المرأة والأطفال. ثم بدلًا من أن نناقش الأسباب التي أوصلت المجتمع لهذا الانحطاط نأتي ونتحدث عن مساوئ الزواج المبكر. لا بأس دعوني أحدثكم عن تجربتي في الزواج المبكر.

تزوجت بعد أن حصلت على الثانوية العامة من رجل يكبرني بخمسة أعوام تقريبًا. ووصفي إياه برجل هنا ليس للتقليل من شأنه كما قد يتبادر إلى أذهانكم، بل أصفه بتلك الكلمة لأنه كان حقًا نعم الرجال. صانني واحترمني وعفني وحماني من كل المغريات والفتن التي أحاطت بي ومازالت تحيط بجميع الفتيات والشباب. ولم يؤثر زواجي على تفوقي الدراسي، بل أنني حصلت على الترتيب الأول على مستوى دفعتي لخمس سنوات متتالية، أربع منهن كانت أثناء زواجي. وتخرجت وعينت في الجامعة.

أخبروني بربكم، ماذا يضيركم في الزواج المبكر؟ ماذا لو يسرنا الزواج لكل شاب وفتاة ارتبطا في الجامعة؟ وبدلًا من المشاهد المخزية التي نراها في المدرجات وفي طرقات الجامعة، نربطهما بميثاق الزواج الغليظ بحيث يشبع كل منهما رغبته في الآخر بما يرضي الله.

أعلم أن الظروف الاقتصادية قد تسبب عائقًا شديدًا تجاه هذا الأمر، ولكن لو خلصت النوايا وأدى كل منا دوره في المجتمع لتغلبنا على هذه النقطة تحديدًا.

على الأسرة تربية أبناءها على تحمل المسئولية منذ الصغر. وعلى الدولة توفير مساكن بسيطة لهؤلاء الشباب لبدء حياتهم فيها ولو في غرفة واحدة، وتوفير عمل كذلك بجانب الدراسة ليضمن لهما معًا أساسيات الحياة.

لماذا ننظر دائمًا للزواج المبكر على أنه ثري عربي يشتري الفتيات أو عادات ريفية تزوج الفتاة لمن يكبرها بعشرات السنين؟ صباح الخير، لم يعد الأمر كذلك البتة. وهذه الحالات، إن وجدت، فنسبتها ضئيلة للغاية مقارنةً بتعداد المجتمع، والفتيات في الريف يتزوجن برضاهن الكامل لا بالإجبار.

انقلوا التجربة الغربية في إطار شرعي. يسروا الحلال لتقضوا على الحرام.

السيدات "الفضليات" اللاتي يطلبن رفع سن الزواج لما بعد 18 عام، لا يضيرهن أن تمارس الفتيات الجنس خارج منظومة الزواج، أما الزواج فلا وألف لا.

وبفرض حسن النية، فأنا أرى يا سيداتي الفضليات أنكن في حاجة لمراجعة الموقف عن كثب. فالفتاة والفتى ذوي الثلاث عشر عامًا لم يعودا طفلين كما في السابق. سن البلوغ يقل يومًا بعد يوم حتى أصبحنا نرى الفتيات تبلغ في سن الثامنة والتاسعة الآن. ومع ما يحدث في البلوغ من تغيرات هرمونية تشعل الرغبة الجنسية، وبدلًا من أن نسمح للفتاة التي بلغت في سن الثامنة بالزواج عند وصولها لسن الثامنة عشر، وهو ما يعني كبتًا عاطفيًا وجنسيًا لمدة عشر سنوات، نأتي ونقول لا، سنزيد معاناتك، وإما أن تقبضي على دينك كالقابض على جمر أو تغلبك عاطفتك وشهوتك وتنزلقي لبئر الخطيئة".

ران الصمت على القاعة بعد أن انتهت من كلامها. وبعد دقائق انفجرت فيها مقدمة الحفل قائلة: "وإذا كان الأمر كذلك، فلم حدث الطلاق؟"

توجهت إليها بصرامة وقالت: "وما مشكلتك مع الطلاق؟ أليس حلالًا كما الزواج؟ أتفهم أن تستفسري عن أسبابه لو كان تسبب لي في ضرر ما وعرفه المجتمع، أما وأن ذلك لم يحدث، فلا مجال للسؤال عن أسبابه. قلت في حديثي أننا يجب أن نيسر الحلال كله، والطلاق ضمن الحلال الذي يجب تيسيره. دعونا نطبق التجربة الغربية في إطار شرعي ونخبر في بدايتها الطرفين أنه يمكنهما الطلاق متى ارتأيا أن كلا منهما لا يناسب الآخر. دعونا نخبرهما بتأجيل خطوة الإنجاب حتى يتيقن كل منهما أنه سيكمل حياته مع الآخر. دعونا نقنع الأهل بتقليل نفقات الزواج إلى حدها الأدنى، ونعلمهم بحديث رسول الله "أقلهن مهراً أكثرهن بركة".

نظرت لها المحاضرة بتحدي وسألتها ساخرة: "وإذا كان الأمر كذلك، فلم لم تطلبي الطلاق وقت علمك بزواج زوجك بزوجة أخرى، أم أنه خدعك ولم يخبرك؟"

وبتحد مماثل ردت فاطمة: "بالتأكيد كنت أعلم بزواجه منذ بدايته، لم يكن يفعل الحرام ليخفيه عني، وزواجه كان من زميلة له في الجامعة من الواضح أنكِ تعرفينها جيدًا، أي أن الأمر كان معلومًا للجميع. ثم أجيبيني بربك هل إذا كنت تقيمين وحدك في بيت به أربع شقق، ثم أتى ساكن آخر في الشقة المجاورة، أوكنت تاركة بيتك بحجة أنه لم يعد لكِ وحدك؟"

ثم أدارت وجهها للحضور وقالت: "هل لدى أحدكم أي سؤال دون الخوض في تفاصيل شخصية؟"

تحدثت إحدى الطالبات قائلة: "فهمت من كلامك أنك تريدين للفتى والفتاة الزواج لإشباع رغباتهم في المقام الأول، ثم تقولين إن بإمكانهم الطلاق إذا لم يتفقا، ألا يعتبر ذلك زواج مسيار؟ أوليس ذلك حرامًا؟"

ابتسمت قائلةً: "أشكرك كثيرًا على هذا السؤال، لكن هل تعرفين ما هو زواج المسيار؟ زواج المسيار هو: أن يعقد الرجل زواجه على امرأة عقدًا شرعيّاً مستوفي الأركان والشروط، لكن تتنازل فيه المرأة عن بعض حقوقها كالسكن أو النفقة أو المبيت، وهو ما لا يحدث في الرؤية التي أطرحها عن الزواج. أغلب ظني أنكِ تقصدين زواج المتعة، وهو ما لم أطرحه مطلقًا، فزواج المتعة يكون من البداية لأجل محدود ومقيد بمدة محددة ويكون بمقابل. لكنني أقصد زواجًا شرعيًا كامل الأركان، لا تشوبه شائبة وغير محدد بمدة. وأما عن تيسير الطلاق في حالة عدم الاتفاق فهذا لأنه قد يخاف البعض من فكرة الزواج لأن قلة الخبرة وسيطرة العاطفة والرغبة قد يكونوا سببًا في سوء الاختيار. فببساطة نقول في هذه الحالة إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وجهت لها إحدى الحاضرات سؤالًا مباشرًا: "وهل كان التسريح بإحسان في تجربتك؟"

فأجابتها: "على الرغم من أنني قلت في البداية أنني لا أريد الحديث في الأمر بشكل شخصي، ولكن نعم، كان كذلك، فلقد تزوجت رجلًا وليس ذكرًا".

وجهت لها المحاضرة سؤالًا وقالت: "وماذا عن نظرة المجتمع للمطلقة؟ أخبرينا عن المعاناة التي تعانيها مع هذا الأمر".

قالت: "أحمد لله أن وهبني أسرة متفتحة مؤمنة بقضاء الله وقدره، ولا ترى في شرع الله ما يُخجل، وكذلك صديقاتي ومن يهمني أمرهم. وأما سواهم فلا قيمة لحديثهم عندي. الأمر فقط يحتاج لشخصية قوية وثقة في النفس. وهذا هو الدور الذي يجب أن تمارسه جمعيات حقوق المرأة، أن تنشر ثقافة تقبل الحلال واحترام المرأة المطلقة، وأن الطلاق ليس سبة ولا نهاية المطاف".

*****

لم تكن تتخيل أن يكون لحديثها في الندوة مثل ذاك الصدى، فلقد كان له دويًا هائلًا بين جنبات الجامعة، حتى أن حازم سمع عنه من بعض زملائه فسأل أسماء، فأرسلت له تسجيلها للندوة، وأخبرتها بذلك ضاحكة: "سوف تنهال عليكِ عقود الاحتراف في القنوات الفضائية"، ثم غمزت لها قائلةً بمكر: "لكن أتعرفين، تأكدت تمامًا أنك قد تجاوزت عليًا بعد هذه الندوة."

نظرت لها وهي تعلم أنها تسخر منها، وتعني عكس ما تقول، لكنها لم ترد أن تخوض في هذا الأمر. أو ربما لم ترد أن تعترف لنفسها أن قلبها يقاتل عقلها باستماتة، ولكن اليد العليا ما زالت لعقلها.

*****

"إذا لم يكن لديك مانعًا، أود طلبك للزواج"

حدثها الدكتور أكرم، المشرف على رسالتها، بهذه الكلمات أثناء مناقشتهما بعض الموضوعات الخاصة برسالة الماجستير.

لحظات من الوجوم انتابتها، ثم رفعت عينيها إليه قائلة: "لم أفهم".

انفجر ضاحكًا وقال: "صحيح أنني قد عشت سنوات طويلة في الخارج، لكن لا أظن أن تلك الصيغة قد تغيرت عما هي عليه الآن".

صمتت قليلًا وقالت: "حضرتك لا تعلم عني شيئًا، أنا مطلقة".

نظر لها بدهشة شديدة وقال: "وماذا في ذلك؟ هل يمنع الطلاق الزواج مرة أخرى؟"

ارتبكت وقالت: "لم أقصد ذلك، ولكن حسبتك لا تعلم".

أخبرها أنه في البداية لم يكن يعلم ذلك ولكنه علم ذلك بعد تلك الندوة، التي أعجب فيها بحديثها وفكرتها، وهو ما رجح حسن اختياره لها من البداية.

شعرت بالدموع تختنق في حلقها، ولم تعرف سبيلًا للإجابة.

استأذنته في الانصراف ولكنه أخبرها أنه سيتواصل مع والدها اليوم.

أوشكت أن تفقد السيطرة على دموعها فانصرفت مسرعةً دون أن تجيبه.

قادت سيارتها لذاك المكان الذي قابلت فيه عليًا للمرة الأولى.

جلست في نفس المكان وظلت تبكي حتى جف دمعها. لم تتخيل منذ ذاك اليوم أنها قد تكون لغيره.

ولم يمنحها عقلها فرصةً، فطعن قلبها دون أن يكترث بألمه. فبمقاييس العقل الدكتور أكرم شخص مناسب، يكبرها بحوالي خمسة عشر عامًا ولا يظهر عليه السن. لم يسبق له الزواج، وله مركز مرموق ومستوى اجتماعي ومادي متميز، كما أن أخيها يتحدث دومًا عن دماثة خلقه، وعليه اطمئن والدها عندما رشحه أخوها للإشراف على رسالتها.

رددت هذه الكلمات على مسامع والدها عندما أخبرها عن محادثة الدكتور أكرم وسألها عن رأيها، فنظر لها بهدوء قائلًا: "وهل تظنين أن ذلك كافيًا للزواج؟"

كانت تعلم ما يعنيه، ولكنها تجاهلت ذلك وقالت: "نعم".

"ولكنني غير موافق يا فاطمة".

"لماذا يا أبي؟"

"لأنني على يقين أن قلبك ما زال مع علي".

"أخبرتك قبلًا يا أبي أنني قد تجاوزت الأمر، وأن زواجي بعلي انتهى".

"لماذا تفعلين ذلك يا ابنتي؟ لم تصرين على جلده وجلد نفسك بسياط البعد والحرمان؟ أخطأ وعاد واعتذر".

قالت بمرارة: "وهل اعتذار الريح يغير من حقيقة انكسار الغصن؟".

صمت والدها ولم يجب، ولكنه طلب منها أن تستخير قبل أن يخبر الدكتور أكرم بردها، كما أخبرها أنه سيأتي لزيارتهم.

وللمرة الأولى في حياتها لا تخبر أسماء بما يحدث في حياتها. كانت تعلم أنها لو أخبرتها فستخبر زوجها وسيخبر عليًا بدوره، ولم ترد أن يعرف ذلك

إلا بعد إتمام الخطبة.

وفي المساء حضر أكرم وتحدث مع والدها وأخوتها عن نفسه وظروفه، أخبرهم أن والديه وأخوته مقيمون في الخارج لذا أتى وحده.

سألته: "ولم اتخذت قرار العودة إذن؟"

أخبرها أن السبب الأساسي كان البحث عن زوجة مناسبة، فهو يريد الزواج بمن تربت في الشرق وملتزمة بتعاليم الدين مع إيمانها ببعض الأفكار المتحررة للغرب والتي لا تتعارض مع الدين، وأن هذا ما جذب انتباهه لها من البداية.

وجهت والدتها له سؤالًا: "ولكن معذرة يا دكتور، شارف عمرك على الأربعين، فلم تأخرت في قرار الزواج؟" كانت والدتها ترى أن فارق السن بينهما كبير جدًا، ولم تستسغ هذا الأمر.

أخبرها أنه انشغل في الحياة الأكاديمية ولم يشعر بحاجته للزواج سوى مؤخرًا. ثم توجه إلى فاطمة بالحديث قائلًا: "أكثر ما لفت نظري في شخصيتك أنها شخصية عملية، تخضع خيارتها للعقل قبل القلب، وهو ما يناسبني كثيرًا لأنني شخص عملي، لا أجيد التفكير بالقلب، ولا أرغب فيه من الأساس".

ضحكت بمرارة في قرارة نفسها وقالت: "ما لنا والقلوب، يناسبني ذلك كثيرًا".

نظر لها والدها محذرًا، أخبرها بعينيه أنها لن أستطيع، فأجابته بل سأفعل.

واتفق والدها مع أكرم على موعد الخطبة، وطلب أكرم أن يكون الزفاف

في أقرب وقت، لكن والدها أخبره أنه يفضل التأني للتأكد من اتفاق رؤية الأمور.

وبعد انصراف أكرم، أرسلت لأسماء رسالة أخبرتها فيها بما كان، ثم أغلقت هاتفها وجلست في غرفتها، ولم تمر الساعة إلا ووجدتها أمامها.

"لن أسألك لم فعلتِ ذلك دون أن تخبريني، فأنا أعرف السبب. لكن وجب علي إخبارك أنك تدمرين نفسك وتدمرين شخصًا آخر لا ذنب له. أفيقي يا فاطمة أرجوكِ قبل فوات الأوان".

"سبق السيف العزل يا صديقتي. لا تقلقي، فقد فكرت جيدًا قبل هذا القرار".

"وماذا عن قلبك؟ قلبك ما زال مع علي. كيف تتزوجين شخصًا وقلبك مع آخر؟"

"ما لنا والقلوب يا أسماء؟"

"لن أناقشك في الأمر من وجهة نظر القلب، ولكن بالعقل، عمرك 24 عامًا وتتزوجين رجلًا شارف الأربعين؟ هل تدركين الفارق بينكما؟" ستواجهين مشاكل جمة بسبب فارق العمر وفارق المجتمعات. نشأ الدكتور أكرم في مجتمع مختلف تمامًا عن الذي نشأتي فيه. أنا أعرفه وأعرف أهله، تعرفت عليهم أثناء سفري مع حازم، وهو مختلف عنكِ تمامًا. صحيح أنه دمث الخلق لكنه مختلف عنك يا فاطمة. وعلى الرغم من أنه شخص عقلاني إلا أنه سيعرف أن قلبك ليس معه، ووقتها ستجدين نفسك في موقف لا تحسدين عليه.

لم تعد تشعر بالارتياح أثناء جلوسها مع أكرم في الكلية لمناقشة الأمور المتعلقة بالماجستير. لم يتجاوز معها بالقول ولا بالفعل، ولكن المشكلة بداخلها هي، تشعر بالحرج والارتباك، تشعر أن نظراته تلاحقها وكأنه يعد عليها أنفاسها. وبعد أن انتهيا من إحدى المناقشات اقترح عليها الذهاب لتناول الغداء معًا، لكنها اعتذرت له وأخبرته أن ذلك لا يجوز.

نظر لها ساخرًا وقال: "وهل يجوز أن تظل لغة الحوار بيننا رسمية بهذا الشكل؟ من المفترض أن نتقرب من بعضنا البعض أثناء فترة الخطبة، ومع ذلك فما زلت تناديني بالدكتور أكرم، والحديث بيننا لا يخرج عن نطاق الرسالة".

أطرقت في صمت، لا تملك جوابًا حقًا، ولا تدري ما العمل.

نظر لها نظرة طويلة ثم قال: "يمكنك الانصراف يا فاطمة، سأمر عليكم مساءً في البيت علنا نتحدث خارج نطاق الدراسة".

خرجت من مكتبه وتوجهت إلى المكتب المخصص للمعيدين، لتجد عليًا في انتظارها.

ارتجفت ووقفت مكانها، لم تدر ماذا تقول، من الواضح أن سلمى أخبرته بأمر الخطبة، فلقد أخبرتها عندما حدثتها.

نظر لها نظرة طويلة وعيناه تشعان ألمًا، "أشتاقك يا فاطمة؟"

تمالكت نفسها وقالت: "مرحبًا يا دكتور علي، هل يمكنني المساعدة؟"

وقبل أن يجيبها سمعت أكرم يقول من الخلف "مرحبًا يا علي في موعدك تمامًا".

ثم اقترب منهما قائلًا: "من الواضح أنكما تعرفان بعضكما البعض".

لم تستطع النطق، هل يعرفان بعضهما البعض؟!

سلم علي عليه وقال: "نعم، فاطمة هي ...."

قاطعته قائلة: "الدكتور أكرم خطيبي".

ثم أشارت إلى علي وقالت: "الدكتور علي؛ طبيبنا المعالج".

ثم استأذنتهما وأخذت حقيبتها وانطلقت دون كلمة أخرى.

لا تدري كيف وصلت لسيارتها، ولكنها انهارت باكية بمجرد دخولها إليها.

وعلى الجانب الآخر لم يستطع علي النطق بعد انصراف فاطمة. وكأن الزمن توقف عند الجملة التي نطقتها.

نظر لأكرم وكأنه يناشده أن ينفي ما سمعه، ولكنه لم يفعل.

أفاق على صوته وهو يقول متعجبًا: "صغيرة هي الدنيا حقًا".

ود أن يخبره أنها أصغر مما يتخيل، ولكن كيف له أن يخبره أن خطيبته هي مطلقته؟!

كيف له أن يخبره أن كل مشاعره التي تحدث بها إليه كانت عن خطيبته؟!

عندما تعرف على أكرم كان في أمس الحاجة للحديث عما بداخله لشخص لا يعرف فاطمة ولا يعرفه، وقد شعر براحة كبيرة في التحدث معه بعد أن أتى للعيادة لعلاج أسنانه بناءً على توصية حازم.

صحيح أنه لم يسئ إليها بكلمة ولم يخبره بأي تفاصيل كانت بينهما، لكن كل حديثه كان عن مشاعره.

كيف له أن يتحدث معه الآن وهو يعلم أنه خطيب فاطمة؟!

وكيف يمكنه تقبل حديثه معه لو علم أن قلبه ينبض بحب خطيبته؟!

"علي، علي... أين شردت؟ أحادثك فلا تجيبني."

تمالك نفسه وقال: "لا شيء، فلنذهب لندرك موعدنا."

*****

لم تستطع أن تهدأ منذ أن عادت، ترى هل أخبر عليٌ أكرم بأنها كنت زوجته؟ كيف تعرفا على بعضهما من الأساس؟!

بالتأكيد حازم هو الرابط بينهما.

اتصلت بأسماء وسألتها، فأخبرتها.

يا الله!!

"لم لم تخبريني يا أسماء؟"

"وهل أخبرتني بأمر خطبتك قبل أن تقدمي عليها يا فاطمة؟ أفيقي يا فاطمة، لقد توقفت حياتك عند لحظة زواج علي من سارة، مرت الأيام والشهور وانتهى هذا الزواج، لكنك وحدك بقيت هناك عند الفندق الذي صعدا إليه، لم أع يوم تركتك هناك وقتها أنك لن تتمكني من العودة، ولو

علمت ما تركتك. دمرتِ حياتك معه رغم عودته وندمه، وليت عقلك هدأ. تتصرفين رغم أنف قلبك. وافقتي على زيجة محكوم عليها بالفشل لا لشيء سوى أن تكسري قلب علي كما انكسر قلبك. وها قد انكسر قلبه، فهل أنت سعيدة الآن؟ هل ارتحت؟ اتركي قلبك يتولى القيادة الآن قبل أن تسوء الأمور بالشكل الذي لا يمكن تداركه."

ألجمها كلام أسماء، ولم تستطع النطق.

وبعد فترة من الصمت، قالت: "أخطأتِ تقدير الأمور يا أسماء. لقد تجاوزت عليًا منذ طلاقي. وها أنا ذا على وشك بدء حياة جديدة مع أكرم، أراكِ لاحقًا يا صديقتي".

وأغلقت الخط قبل أن تسمع أي كلمة أخرى منها.

شردت فيما قالت أسماء. أتراها محقة؟ لا لا لم تفعل ذلك. انتهى علي من حياتها، وهي الآن مخطوبة لشخص آخر، ومن أبسط حقوقه ألا تفكر في سواه.

دخلت والدتها تخبرها أن أكرم قد حضر وفي انتظارها في الخارج مع أخيها، ثم نظرت لها وقالت: "ما بك يا فاطمة؟"

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: "لا شيء يا أمي لا شيء، سوف أخرج حالًا".

لكنها أمسكت ذراعها بحزم وقالت: "لن يسعنا الوقت للتحدث الآن، ولكننا سنفعل بعد انصراف أكرم".

خرجت إليه وكل ما تتمناه ألا يكون قد عرف أن عليًا كان زوجها، وأنبأتها ابتسامته أنه لم يعرف.

جلست وهي لا تدري ما تقول، تمامًا ككل مرة يحضر فيها.

تذكرت تلك الأيام التي كان علي يحضر إليها فيها ويتحدث مع أخيها ولا يتحدث معها.

فكرت كم كانت تشعر بالحنق لذلك، وها هي تكرر نفس الأمر مع أكرم ولكن الأدوار معكوسة، وما في داخلها عكس ما كان بداخل علي وقتها.

لكن لا لن تستسلم لهمزات الشيطان تلك، طالما وافقت على هذه الخطوبة، فستبذل ما تستطيع لإنجاحها، ولن تخون الله. هكذا أسكتت صوت ضميرها.

أفاقت على صوته قائلًا: "هل لي بسؤال يا فاطمة؟"

بالطبع، تفضل.

"هل أنت مجبرة على تلك الزيجة؟"

صدمتها كلماته، فقالت بابتسامة باهتة: "وهل يمكن إجبار أحد على الزواج؟"

"كان عليك الالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، فمن الواضح أن لك عقلًا دبلوماسيًا متميزًا. اسمعيني يا فاطمة، أنا لست صغيرًا في السن، ولدي خبرة لا بأس بها في التعامل مع الناس، كما أن لكِ وجهًا بريئًا تظهر عليه الانفعالات التي تدور بداخلك، فدعينا نتحدث

بوضوح وشفافية. أعلم أن فرق العمر بيننا ليس بقليل، وأنا أحاول الاقتراب منك للتغلب على ذلك، فأرجوك ساعديني. أخبريني عن ماهية الحاجز الموجود بيننا علنا نستطيع اختراقه معًا."

انسابت دموعها بلا وعي وقالت: "أنا آسفة، لم أرد أن أسبب لحضرتك ذلك الألم، ولكن أقسم لك أن ذلك رغمًا عني".

ابتسم برقة وقال: "لا داعي للأسف والدموع، كما أنه لا داعي لتلك الرسميات التي تصرين على أن تحدثيني بها. فقط أخبريني بما في داخلك".

أطرقت برأسها وقالت: "لم أستطع حتى الآن التغلب على تجربة زواجي السابق، ما زالت تتحكم في تصرفاتي بشكل أو بآخر. فقط أحتاج بعض الوقت للاعتياد على الأمر".

قال بإشفاق: "هل كان سيئًا معك إلى هذه الدرجة؟"

ارتجفت وقالت: "بل العكس تمامًا، وقد يكون ذلك هو سبب خوفي".

"فلم حدث الطلاق إذن؟"

"اعفني من ذكر الأسباب، فلا أود الخوض في تفاصيل انتهت، ولكن بعض الأخطاء يصعب على النفس تقبلها والتعايش معها".

"إذا كان ذلك فقط هو السبب، فلا بأس سنتغلب عليه معًا. أعتقد أن القلق والخوف الذي بداخلك سينتهي بعد الزواج. لو لم يكن لديك مانع سأتحدث مع والدك لتعجيل الزواج".

صرخ قلبها في هذه اللحظة. شعرت أنه سيخرج من بين أضلعها ليقول لا، لكن عقلها ألجمه وأخرسه للأبد، فقالت: "لا بأس بذلك".

*****

"لماذا لم تخبرني يا حازم بخطبة فاطمة لأكرم؟"

"لم أعرف بها إلا بعد أن تمت يا علي. صحيح أن أكرم سألني عن فاطمة، ولكني ظننت أنها رفضت لأن أسماء لم تخبرني بشيء. ثم فوجئت بعد ذلك بأسماء تخبرني أن فاطمة قد خطبت دون أن تخبرها".

"وهل أخبرته بأنها كانت زوجتي؟"

"لا، لم أفعل. هل حدث شيء؟"

"لا شيء يا حازم، تفاجأت اليوم بذلك فقط، فاعذرني لن أستطيع الحديث الآن".

أغلقت مع حازم وأرسلت لمساعدي اعتذارًا عن الحضور للعيادة اليوم. أشعر بخنجر منغرس في قلبي. طوال الفترة السابقة وأنا على يقين أن فاطمة لي مهما طال الزمن. كنت أظنها فترة خطوبة جديدة وسنعود، لم أشك لحظة في ذلك. حتى عندما أخبرتني أنها تجاوزتني ظننت ذلك دلالًا منها لتعرف قيمتها عندي، لم أكن أعلم أنها قد تجاوزتني حقًا.

ترى، هل هذه فاطمة التي أعرفها حقًا، أم أنني لم أعرفها من الأساس؟

ترى هل ما أشعر به الآن هو نفس شعورها عندما علمت بزواجي من سارة؟ هل نزف قلبها كما ينزف قلبي الآن؟

قطع أفكاري حضور سلمى وزوجها وأطفالها، واضطررت للخروج من غرفتي للمكوث معهم، ولم يخف حالي على أحد بالطبع.

كنت جالسًا معهم بجسدي دون عقلي الذي كان شاردًا عند اللحظة التي علمت فيها بخطبة فاطمة، وكأن الزمن توقف بي عند هذه اللحظة فلم أغادر مكاني.

أفقت على صوت سلمى وهي تقترب مني قائلة بهمس: "من الواضح أنك قد علمت بأمر خطبتها".

نظرت لها غير مصدق، كيف ومتى علمتِ بذلك؟!

نظرت لي بأسى وقالت: "أنا على تواصل دائم معها."

أردت أن أفرغ شحنات الغضب التي بداخلي فصرخت فيها: "ولماذا لم تخبرينني بذلك؟"

انتبه الجميع لصوتي، ونهرني أبي قائلًا: "انتبه لنفسك يا علي، ما حدث قد حدث وانتهى الأمر".

"إذن فأنت أيضًا تعرف يا أبي. وماذا عنك يا أمي؟ وماذا عن الجميع؟ تعرفون جميعكم بالأمر ولم يخبرني أحد."

لم أكن واعيًا لنفسي كما قال أبي، أعماني الغضب لدرجة أن مصطفى أمسك بي خوفًا من أي تصرف أحمق.

ولكني توقفت فجأة عندما قالت سلمى: "نعم، نعرف جميعًا بالأمر، ولم نخبرك، تمامًا كما كنا على علم بزواجك من سارة ولم نخبرها. على الأقل لم نخبرك بالأمر لأن علاقتكما انتهت الآن ولم يعد لك الحق في ذلك، أما هي فقد أخفينا جميعًا عنها الأمر وقت أن كان حقها أن تعرف. لماذا أنت غاضب الآن؟ ألأنك قد شربت من نفس الكأس التي أشربتها منها؟!"

لم يجد أحدنا ما يقول، فصمتنا جميعًا وكأن على رؤوسنا الطير.

*****

لم أستطع الاستمرار في البيت بعد ما قالته سلمى. غيرت ملابسي وأخذت سيارتي وانطلقت للمنتزه، أحب الأماكن لقلب فاطمة، ووقفت في نفس المكان أستعيد ذكرياتنا معًا، وكل ما يشغل ذهني كلمتان "خطبت فاطمة".

انتهت الحكاية ولا أعرف ما سيحدث بعد ذلك. نظرت للشمس التي ارتفعت قليلًا في السماء، هل شردت كل هذا الوقت؟

للمرة الأولى أجد سؤال أبي يتردد في ذهني؛ هل كان الأمر يستحق حقًا؟

هل أنا ظالم أم مظلوم؟ لا أدري حقًا.

لم تلمني فاطمة على الزواج الثاني، بل لامتني على كذبي وإخفائي للأمر عليها، فهل كانت النهاية ستختلف لو أخبرتها؟

ولماذا أنكر عليها الآن حقها في الزواج من آخر؟ ألم أخبرها أنني لم أفعل الحرام؟ وها هي الآن تفعل الحلال تمامًا كما فعلت أنا.

لكن الحياة لا يجب أن تتوقف، ستستمر الحياة، بحلوها ومرها، فلتستمر إذن كما قدر الله لها، فلم أعد أبالي.

وبعد أن كنت قد قررت أن أبقى لفترة تاركًا كل شيء ورائي، أخذت سيارتي وعدت، لتستمر الحياة!

لم يوافق والد فاطمة على تعجيل الزواج، واتفق مع أكرم أن يكون الزواج بعد مناقشة رسالة الماجستير، فوافق أكرم على مضض.

شعرت فاطمة بالراحة لذلك، ولكن مع اقتراب موعد المناقشة، لم تعد تحتمل.

وأثناء استعدادها للمناقشة، وبينما هي في القاعة، كانت تبحث عنه دون وعي. حدثت نفسها "أخبرني أنه سيكون موجودًا عند كل بداية، فلم لا أراه الآن؟"

لاحظ أكرم توترها وزيغ نظراتها، فظنها خائفة، طمأنها وأخبرها ألا تقلق، ووعدها بمفاجأة كبيرة.

وبعد أربع ساعات من النقاشات حصلت على الدرجة.

رأت السعادة في عيون الجميع، لكنها لم تشعر بها بنفس القدر.

وبينما يغادرون القاعة لمحته يغادرها.

ما زال على عهده!

*****

أقام والد فاطمة حفلًا أسريًا احتفالًا بانتهاء الماجستير، وفي نهايته فجر أكرم المفاجأة.

أخبرها أنه في طريقه لإنهاء إجراءات منحة لها للحصول على الدكتوراه من الجامعة التي كان يعمل بها في الخارج، وطلب من والدها تحديد موعدًا لعقد القران ليتمكنا من السفر سويًا بعد انتهاء الإجراءات.

ارتجفت من قمة رأسها حتى أخمص قدماها.

كانت تخشى الزواج، وها هي مقبلة على زواج وسفر.

نظرت إليه وهي تحاول رسم البهجة على وجهها وشكرته، ولكن نظراته لها كانت غريبة.

لم تكن تلك النظرة الودودة التي تعودت أن تراها في عينيه.

توجه بحديثه لوالدها قائلًا: "هل يمكنني التحدث لفاطمة على انفراد؟"

وافق والدها فتوجها للشرفة، وبمجرد دخولها قال: "والآن ما هي حجتك الجديدة لتأجيل الزواج؟"

نظرت له مصدومة وقالت: "حجتي؟ ولماذا أفعل ذلك؟"

"أخبرتك قبلًا يا فاطمة أنني شخص عقلاني، أرى بعقلي ما لا يمكن لكِ أن تريه بقلبك، كما أخبرتك أن وجهك يعكس كل الانفعالات التي تدور بداخلك. طوال فترة خطوبتنا التي استمرت لعام كامل لم أتمكن من الوصول لقلبك، لم أتمكن من طمأنتك. حقيقة لا أعلم السبب. أخبرتك منذ البداية أنني لا أجيد التعامل بالمشاعر، وقبلتِ ذلك. ولا أعلم أيضًا لم قبلت بذلك رغم أنك شخصية حالمة. لا أظن أن السبب كان رسالة الماجستير، فأنت بالفعل طالبة متميزة، ولا حاجة لك بذلك. هناك شيئًا آخر لم أستطع وضع يدي عليه."

تمالكت نفسها وقالت: "لا أعلم سبب حديثك هذا، ولكنه ليس صحيحًا".

"إذن فأنت سعيدة بالمنحة، وموافقة على تحديد موعدًا للزواج".

"أما عن الزواج فلا بأس، يمكنك تحديد الموعد مع أبي، لكن بخصوص المنحة فالأمر مفاجأة لي، فجأة أجد نفسي أترك أهلي وحياتي، وأبدأ حياة جديدة في مجتمع مختلف؟ ثم إننا لم نتفق على السفر من البداية، أخبرتني أنك قررت الاستقرار هنا".

"وهل اتفقنا على شيء من الأساس؟ هل سألتني يومًا طوال السنة السابقة عما أريده أو أخطط له؟ كل حواراتنا كانت عبارة عن الرسالة في مجملها، أو أنك تردين على الأسئلة التي أوجهها لك، لم نتعد حتى الآن مرحلة الأستاذ والطالبة".

لم تجد ما تقوله فأطرقت صامتة.

"أنا في انتظار قراراك".

"لن أستطيع السفر".

"وأنا قررت السفر يا فاطمة، فإما الزواج والسفر، وإما ننهي الأمر الآن".

"هلا منحتني فرصة لحسم أمري؟".

"لا، بل الآن. هل كنت ستحتاجين لهذه الفرصة لو أن من طلب ذلك هو علي وليس أكرم؟"

انتفضت من مكانها، ونظرت له غير مصدقة.

"ظننتني لا أعلم؟ أخبرتك أنني أزن الأمور بعقلي وأرى به ما لا يمكنك رؤيته بقلبك. أتذكرين يوم أن أتى علي للجامعة؟ الانفعال الذي ظهر على وجهك أنبأني أن الأمر بينكما يتعدى حدود الطبيب المعالج كما

قلت. والصدمة التي ارتسمت على وجهه يومها أكدت لي صدق حدسي. وعندما أتيت إلى بيتكم مساءً، سألت أخيكِ عنه، فأخبرني أنه زوجك السابق. ومن يومها انقطعت اتصالاتنا رغم ما كان بيننا من صداقة وليدة، واحترمت رغبته في عدم الحديث لأنه كان دائم الحديث معي عن مشاعره تجاه زوجته السابقة، والتي تفاجأ يومها أنها خطيبتي. احترمت صراحتك معي عندما جاوبتني عن سبب طلاقك السابق، ولكني تيقنت من أنه ما زال يملك قلبك، ومع ذلك قررت الاستمرار لأني رأيت في عينيك جرحًا صعب اندماله، وكلامك أوحى لي أن عقلك تجاوز الأمر. لكنني لم أضع قلبك في حسباني، ظننته سيهدأ، ولكن الأيام أثبتت خطأ اعتقادي. وها أنا اليوم أقر واعترف أنني قد أضعت من عمري عامًا وراء سراب، لذا فلا داعي للاستمرار في هذه المسرحية. وإذا أردت رأيي عودي لعلي، فلن تستقيم حياتك دونه، وهو لم يتوقف عن حبك يومًا."

لم تتوقف دموعها منذ أن بدأ أكرم كلامه وحتى انتهى من حديثه.

طلبت منه أن يسامحها لأنها ظلمته، ولم تستطع أن تمنحه ما يريد وهو الذي لم يسئ لها يومًا. لكنه قال: "لم أسيء إليك حقًا ولكن أسأت لنفسي عندما قررت الاستمرار في علاقة محكوم عليها بالفشل منذ البداية، وهو ما لن أغفره لنفسي قط. أما عنك فأنا أعلم أنك حاولتِ ولكن يبدو حقًا أنه ليس لنا سلطان على قلوبنا. وإذا كان كلامي يشعرك بتحسن، فأنا لا أشعر بأي ألم نفسي أو ضغينة تجاهك، على العكس أشعر بالشفقة عليك لأنك تضيعين عمرك وراء سراب العقل. أتمنى لك حياة موفقة."

مرت عدة أيام منذ ذلك اليوم لم تخرج فيه فاطمة من غرفتها، كان والدها قد استمع لكل كلمة دارت بينها وبين أكرم، فلقد كان جالسًا بجوار الشرفة وقت جلوسهما فيها. وبعد انصراف أكرم نظر لها بحزن ولم يتحدث معها.

وبعد عدة أيام، أرسلت فاطمة رسالة لأسماء.

"أتدرين يا صديقتي، كنت محقة. توقف بي الزمن في ذلك اليوم عند ذلك الفندق الذي شهد زواج علي وسارة. ليتك ما تركتني يومها".

وبعد ساعة فتحت أسماء باب السيارة وجلست بجوارها. نظرت لها وقالت: "كنت متأكدة أنني سأجدك هنا في نفس المكان الذي تركتك فيه. هيا يا فاطمة لابد أن نرحل الآن".

"أنا ضائعة يا أسماء. كنت محقة في كل ما قلتِ. أردت أن أكسر قلب علي كما كسر قلبي، فأجهزت على ما تبقى من قلبي. كذبت على نفسي ودمرت حياتي، كنت عمياء يا أسماء، ظلمته وظلمت أكرم وظلمت نفسي."

"لعل الخير يكمن في الشر. سلمي أمرك لله وابدئي من جديد. لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا".

أدارت سيارتها لتنطلق نحو بداية جديدة علها تكون سعيدة.

لكن بعد وصولها للبيت، وجدت والدها في انتظارها. نظر لها بصرامة وقال: "أين كنت يا فاطمة؟"

"كنت مع أسماء يا أبي."

"أتدرين يا فاطمة، ربما أكون السبب فيما وصلتِ له".

أجمتها كلماته، نظرت له وقالت: "نعم يا أبي أنت السبب في كل لحظة نجاح وسعادة عشتها. دون دعمك ما كنت لأصل لما وصلت إليه من نجاح".

أكمل قائلًا: "ولا ما وصلت إليه من تعاسة كذلك. كان يجب أن أجبرك على الرجوع لعلي منذ أن عرفت الحقيقة، الحقيقة التي لا أعلم حتى الآن كيف فعلتها وكيف أسأت لنفسك بهذا الشكل. لكنني مع الأسف لم أرد أن أجبرك على شيء. ظننتك قادرة على حسن الاختيار واتخاذ القرار لكنك خذلتني وخذلت نفسك. صدقتك حين أخبرتني أنك تجاوزت الأمر ووافقت على خطبتك لأكرم، رغم تيقني أن قلبك ما زال مع علي. ربما كان يجب علي أن أقسو عليكِ وأصفعكِ حتى تستفيقي بدلًا من تركي إياكِ تسقطين في بئر الحيرة والشعور بالذنب. ظننتك قوية عاقلة، ونسيت أو تناسيت أن قوة المرأة في قلبها لا عقلها. عودتك استعمال عقلك منذ الصغر ولم أع أن العقل دون قلب نار تحرق صاحبها أول ما تحرق، وها أنا اليوم أراك تحترقين أمامي يومًا بعد يوم دون أن أملك القدرة على نجدتك".

"لا يا أبي، أرجوك، يمكنني أن أتحمل أي شيء في الكون سوى أن أراك بهذا الضعف، لن أتحمل أن أفقدك أنت أيضًا. أنا المخطئة لا أنت. أنت أكرمتني وأحسنت إلي ولكنني كنت حمقاء ولم أقدر، فلا تلم نفسك. هي خطوات مكتوبة، وسينتهي ما نحن فيه كما انتهى سابقه. أعدك أن أكون قوية ولن تراني بهذا الضعف بعد ذلك أبدًا".

"أريدك سعيدة لا قوية".

"أنا الآن سعيدة يا أبي والحمد لله. سعيدة لأنني أبصرت الطريق، وخرجت من البئر الذي كنت قد سقطت فيه يوم زواج علي. صدقني هذه المرة إذا قلت لك أنني قد تجاوزت الأمر، واستوعبت الدرس جيدًا. ربما لم أنتبه قبل ذلك للآية "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا"[1]

القلب هو موضع العقل يا أبي، ولو كنت استفتيت قلبي كما أمرنا رسول الله ما أقدمت على ما فعلت.

******

كان لحديثها مع والدها بالغ الأثر في حالة الصفاء الذهني التي وصلت إليها. أيام وأيام مرت هدأت فيها نفسها. ابتعدت فيها عن كل شيء قد يذكرنها بما فات، وكالعادة لم تتركها أسماء يومًا.

مرت ستة أشهر على ما حدث، استعادت فيها الكثير من توازنها النفسي، وابتسامتها التي كانت قد فقدتها.

اختفى علي من حياتها تمامًا. لم تره طوال هذه الشهور الستة ولو لمرة واحدة، ولم تتحدث كذلك مع سلمى، وكأن الله ييسر لها التعافي.

وفي يوم أتت أسماء لزيارتها بوجه غير الذي اعتادت أن تراها به. سألتها عما بها فترددت قليلًا ثم قالت: "هناك خبر أود أن تعرفيه مني يا

---

[1] سورة الحج الآية 46

فاطمة قبل أن تعرفيه بأي طريقة أخرى، ولكن عديني ألا يؤثر ذلك عليكِ."

أجابتها: "ماذا عن علي؟"

قالت: "سيتزوج الأسبوع القادم".

ابتسمت بمرارة وقالت: "لا بأس، أتمنى له السعادة".

"هل أنت متأكدة يا فاطمة؟"

"أتدرين يا أسماء، قرأت قريبًا مقولة أظنها تنطبق على وضعي تمامًا؛ (وكأنك في خلاف أبدي مع الحب؛ إما أن تجد من يحبك وأنت لا تحبه، أو أنك تحب من لا يحبك، ولو شاء القدر والتقيت بمن يحبك وتحبه فقد لا تحبكما الحياة معًا[1])"

ثم استدركت قائلةً: "بلغيه تهاني القلبية".

قالت بعد تردد: "هو يطلب منك الحضور".

نظرت لها باستغراب وقلت: "ولم ذلك؟"

"لا أدري يا فاطمة، ولم أكن لأخبرك بطلب مثل هذا، ولكنها أمانة حملها لحازم ليوصلها لكِ من خلالي".

شردت قليلًا ثم قالت: "لا بأس يا أسماء، ربما كان ذلك تكفيرًا عما ارتكبته في حقه، ولكن رجاء كوني معي لا تتركيني أذهب وحدي".

"بالتأكيد يا حبيبتي، سأمر عليك يومها."

---

1 محمد طارق

"لا بل سأمر عليك أنا ونذهب سويًا، اتفقنا؟"

"اتفقنا".

وفي اليوم المحدد اشترت فاطمة باقة من الورود، ومرت على أسماء، وبمجرد أن دخلت السيارة قالت كلمتها المشهورة: "الورد جميل .. جميل الورد".

وتبادلتا الضحكات ذاتها التي تتبادلانها مع كل مرة.

نظرت لها وقالت: "جميلة أنتِ ومتألقة كعادتك، قد يترك عروسه ويأتي إليك مأخوذًا بجمالك".

ضحكت بمرارة وقالت: "أو ربما لفت نظر أحدهم، فتقدم لي خاطبًا. المهم سوف ننتظر خارج القاعة، حتى ينتهي العقد، وبعد ذلك نهنئهما ونرحل، لا أريد أن أبقى فترة طويلة، اتفقنا؟"

"اتفقنا، ولكن العقد في حديقة منزلهم وليس في قاعة".

"لا بأس بذلك، سأنتظر في السيارة".

وعند وصولنا، شعرت أن قدماها تكاد تخذلنها، ولكن أسماء قالت ساخرة: "ما بالك يا فاطمة، مررنا بتلك اللحظة قبلًا، لكن لا تخافي لن أتركك اليوم كما تركتك سابقًا".

ابتسمت لدعابتها المريرة رغم كل شيء، وجلسنا في السيارة ننتظر.

مر علي أمامهما ثم عاد عندما انتبه لوجودهما. ترجلت من السيارة وتبعتها أسماء. قالت: "مبارك يا دكتور علي، بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير". أعطته الباقة، وكادت أن تنصرف لكنه قال: "شكرًا

لحضوركما، هلا دخلتما لتهنئة زوجتي وإعطائها الباقة، سيعني ذلك لي الكثير."

حاولت أسماء الاعتذار، ولكنني قلت "لا بأس، تفضل وسنلحق بك".

كان جل ما أرادته ألا تحزنه في هذا اليوم. اليوم رأت في عين علي نفس النظرة الي رأتها في عينيه يوم زفافهما، ولا تريده أن يفقدها مرة أخرى، يكفيه ما مر به بسببها.

شجعتها أسماء وأثنت على قرارها وبدأتا التحرك نحو المدخل. وقرب الباب توقفت عندما سمعت الزغاريد والتهاني، نظرت لأسماء وقالت: "لن أستطيع يا أسماء". خذلتها قدماها فسقطت وكان آخر ما سمعته قبل أن تفقد الوعي جملة طويلة ميزت منها "يا فاطمة .. أنا علي".

*****

النهاية كما يرويها علي

كنت في انتظار دخول فاطمة وأسماء، وفجأة سمعت صوت أسماء تصرخ باسم فاطمة وتحاول احتوائها بين ذراعيها كي لا تقع على الأرض.

لا أدري كيف وصلت لهما قبل لحظة من سقوط فاطمة على الأرض.

تلقفتها بين ذراعي، وهمست في أذنها: "انتظري يا فاطمة، يا فاطمة أنا علي".

اقترب والدها وأخواها بعد انتباههما لما حدث، ليرفعاها معي، ولكنني رفضت وحملتها وصعدت بها لشقتي. أفسحت المجال لوالدتها التي طمأنتنا أن فاطمة تعاني من هبوط لأنها لم تتناول أي شيء من البارحة. طلبت بعد المحاليل فأحضرتها وحقنتها بها، وجلسنا ننتظر حتى تفيق.

نظرت لي أسماء بغيظ شديد وقالت: "لا أدري كيف وافقتك على ذلك، كنت أعلم أنها لن تتحمل".

طمأنتها والدة فاطمة، ثم قالت هي الآن نائمة فلا تقلقي يا ابنتي، هي فقط بحاجة لبعض الراحة نتيجة الانفعال.

كان جل ما أتمناه أن ينصرفوا جميعًا ويتركوني مع فاطمة، لكنني لم أعرف كيف أخبرهم بذلك. مرت ساعتان على ذلك الوضع، ولم يجد أي جديد، ما زالت نائمة.

كان أخواها قد انصرفا، وبقى والداها وأسماء مع والديَّ وسلمى، نظر والد فاطمة إلى ساعته، ثم أشار لزوجته وقال: "هيا لنوصل أسماء لمنزلها، فلا يصح أن نؤخرها أكثر من ذلك."

لكن أسماء نظرت لي بتحد وقالت: "لا بأس يا عماه، سأنتظر حتى تستيقظ، لن أرتاح حتى أطمئن عليها".

ابتسمت والدة فاطمة وقالت: "لا تقلقي يا حبيبتي، ستستيقظ وستكون بخير، وصدقيني الأفضل أن تعرف الحقيقة من علي وحده". ثم التفت لي وقالت ضاحكة: "وليكن الله في عونك".

انصرف الجميع بعد أن وعدتهم أن أرسل إليهم لأطمئنهم بمجرد أن تفيق، وأغلقت الباب خلفهم ناطقًا "أخيرًا".

دخلت الغرفة، وبقيت أنظر إلى فاطمة وأمتع عيني بها. يا إلهي كم اشتقت إليكِ يا فاطمة.

ثلاث سنوات مرت على آخر لقاء لنا هنا، ومن يومها لم تجد الراحة طريقها إلي.

اقتربت منها وهي نائمة، كانت والدتها قد نزعت عنها حجابها، فمسحت على رأسها وقبلت جبينها. استيقظي يا فاطمة أرجوك لم أعد أحتمل. أحترق شوقا لكِ، فافتحي عينيك وانتشليني من بين براثن النيران واطفئي شوق قلبي بماء حبك.

وبينما أنا أنظر إليها فتحت عينيها، فأنارت حياتي بنظرة.

حدقت في للحظة ثم رفعت يديها تمس وجهي وكأنها تريد أن تتأكد من حقيقة وجودي، ولكنها سرعان ما انتفضت ودفعتني بعيدًا عنها عندما تأكدت من حقيقة وجودي.

قامت من السرير وهي تستغفر الله وتقول: "ما الذي جاء بي إلى هنا؟ أين حجابي؟ ماذا فعلت بي يا علي؟"

التقطت حجابها ووقفت ترتجف حتى أحكمته على رأسها، وأنا أنظر إليها بشفقة ومكر، وأنا أحاول تمالك نفسي من الضحك.

أمسكت هاتفي وأرسلت الرسالة التي وعدتهم بها، ثم أغلقته.

نظرت لي واتجهت نحو باب الغرفة لتخرج ولكنني كنت قد أغلقتها بالمفتاح تحسبًا لذلك.

توقفت وهي لا تدري ماذا تقول أو تفعل.

التفتت وقد استعادت رباطة جأشها: "علي، أنا أعرف أنك لم تمسني، أثق في أخلاقك وأعلم أنك ما كنت لتعصي الله. ولكنني في بيتك الآن وفي غرفة نومك، ولا أذكر كيف ومتى حدث ذلك، فأرجوك دعنا نخرج من هنا أولًا ثم نتحدث".

"هل انتهيتِ؟"

"نعم".

"غيري ثيابك إذَا لأنك لن ستنامين هنا الليلة".

"هل جننت؟ ماذا تقول؟"

كنت أراقب وجنتيها وحمرة الغضب تغزوها، واستمتع بذلك.

رن هاتفها فأدارت عينيها بحثًا عن مكانه ولكنني ألتقطه وأغلقته هو الآخر.

حاولت التظاهر بالهدوء وأنا أعلم أن هناك تنينًا سيخرج الآن ليحرقني.

قالت: "حسنًا لك ما أردت، ولكن دعنا نتحدث أولًا، أخبرني كيف أتيت بي إلى هنا، ماذا حدث؟"

قلت: "لم أستطع أن أتحمل رؤيتك تسقطين، فتلقفتك بين ذراعي وصعدت بك إلى هنا".

قالت: "ثم؟"

قلت ساخرًا: "ثم أنكِ مطالبة الآن أن تصلحي خطأك الذي ارتكبته بحقي".

"إذا كنت تظن أنني أخشاك فأنت واهم، أنا أعلم أنك لن تغضب الله أبدًا، وإن كنت قد ضعفت وأتيت بي إلى هنا، فلن تفعل ما هو أكثر. أنا أثق بك أكثر ما أثق بنفسي يا علي".

"فإذا كان الأمر كذلك، فاقتربي مني".

"لا لن أفعل".

"إذن سأقترب أنا".

ولم ألحظ أنها في هذه اللحظة كانت بجانب النافذة وأنها فتحتها بسرعة قبل أن أدرك الأمر لتحاول إلقاء نفسها منها، ولكني أمسكت بها في اللحظة الأخيرة.

احتجت لحظة لأتدارك الأمر، وهي بين ذراعي تحاول الإفلات.

"دائمًا ما تفاجئيني بما لم أخطط له، أنت زوجتي الآن أيتها الحمقاء فاهدئي".

تصلبت تمامًا فأفلتها، سقطنا سويًا على الأرض نلتقط أنفاسنا.

نظرت لي بشك غير مصدقة لما أقول. أما أنا فقد نظرت لها بغيظ ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكًا.

لن أنسى ما حييت شكل فاطمة في هذه اللحظة.

نظرات زائغة غير مستوعبة لما يقال، وبحذر سألتني: "ألم يكن اليوم عقد قرانك؟"

أجبتها مبتسمًا: "بلى، كان عقد قراننا، عدتِ زوجتي اليوم يا فاطمة".

"أرجوك يا علي، لا تمزح معي، لم أعد أحتمل".

"وهل هذه الأمور تحتمل المزاح؟"

"وكيف حدث ذلك؟"

"كان ذلك بالاتفاق مع والدك".

*****

أخبرني مساعدي بعد انتهاء العيادة، أن هناك من ينتظرني.

طلبت منه أن يسمح له بالدخول، ففوجئت بوالد فاطمة.

وبعد السلام، حكى لي عن آخر لقاء بين فاطمة وأكرم، وأخبرني بانتهاء الخطبة.

ثم قال: "قد يراني الناس مخطئًا في ذلك الموقف ولكن يا بني أنا أعلم جيدًا أنك ما زلت تحب فاطمة، وهي كذلك، وقد أدركت مؤخرًا أنه كان يجب أن أجبرها على الرجوع إليك حين طلبتها. ظننت أنها ستتخذ هذا القرار بنفسها، ولكنها خيبت ظني، وما كانت خطبتها لأكرم إلا لتكسر قلبك كما كسرت قلبها بزواجك".

تفاجأت بما قال، لم أستطع النطق، أهكذا يا فاطمة؟!

نظر لي وقد أساء فهم صمتي، وقال: "ليس لي أن أجبرك على هذا الزواج، ولكن ابنتي لن تعود كما كانت إلا معك، خذ وقتك في التفكير، وأيًا كان قرارك فلن يؤثر على علاقتنا".

"أي وقت هذا الذي تتحدث عنه يا عماه، ألا ترى أنني لم أفكر في الزواج حتى الآن؟؟ الأمر فقط أنني أخطط لشيء وأريد مساعدتك فيه، فهلا ساعدتني؟"

أخبرته أن نتركها فترة لتهدأ، ثم نخبرها من خلال أسماء بأنني سأتزوج، وأطلب منها الحضور، على أن يزوجني إياها قبل حضورها، وعند دخولها مع أسماء تتفاجأ بالأمر.

نظر لي بدهشة، وضرب كفًا بكف، وهو يقول: "ولم كل ذلك؟"

رجوته أن يوافقني دون أن يسألني عن السبب.

وقد كان. ولكننا اضطررنا إلى إخبار أسماء بأن عقد القران سيكون على فاطمة قبل ذلك بيومين لأنها خافت على فاطمة من الصدمة إذا تعرضت لذات الصدمة مرة أخرى. والحقيقة أنها لم توافق على خداع فاطمة إلا بعد أن طمأنتها والدة فاطمة لما سيكون. وقد كانت محقة فلم تحتمل فاطمة الأمر وسقطت قبل دخولها.

*****

ران الصمت على فاطمة بعد انتهائي من الحديث. نظرت إلي وقالت: "لا أصدق أن أبي اتفق معك عليَّ."

"يمكنك أن تسأليه".

نظرت لي معاتبة وقالت: "وهل كذبتك يومًا لأكذبك الآن".

نظرت إليها وقد بلغ مني الشوق مبلغه وقلت: "اشتقت إليكِ".

هربت من نظراتي وقالت بخجل: "لن أنساها لك".

"ستفعلين".

"وكيف تعلم؟"

"كما علمت أنكِ لن تكوني لغيري. انظري إلى بيتنا يا فاطمة. كل شيء فيه كما تركته منذ سنوات ثلاث، لم يتغير أي شيء فيه. كنت أنتظر عودتك".

نظرت لي واجمة وقالت: "هل سينسى كل منا ما فعله به الآخر؟"

"لن ننسى، بل سنكتب ونسجل كل ما حدث لنا معًا ليكون رادعًا لنا إذا ما ابتعدنا".

اقتربت منها وأخذتها نحو النافذة، حضنتها من الخلف وأشرت إلى النجوم قائلًا: "ألا تعرفين ما حدث لي بعد أن درت في فلك إحدى النجمات؟ فقدت نجمتي التي انطفأت لتنيرني ولم أعد أراها. ثم اكتشفت أن جناحي اللذين استعملتهما للوصول لنجمة أخرى كانا من نورها. ظللت أدور في الفلك وأنا أراقب نجمتي بحسرة، إلى أن سمعت أنينها. ولما رأى الشهاب حسرتي وأنينها، أتى ليحملني إليها، وتحمل ما قد يلاقيه من احتراق في سبيل ذلك. سقطت جوار نجمتي وقد أقسمت أن أذوب فيها وأعوضها عما لاقت من عذاب".

أدرتها وقد شعرت بلهيب دموعها على يدي، رفعت وجهها فابتسمت وقالت: "خطوبة مرة أخرى؟"

"بل امتزاج لا يعقبه انفصال".

*****

تمت بحمد الله